رواية

الراحلون

أحمد إبراهيم موسى





تعدَّدت أسبابُ الرحيلِ، والفِراقُ واحدُ

أحمد إبراهيم موسى

اعتذارٌ

كُلُّهم يبدأونَ كُتُبَهم بإهداءٍ إلا أنا، أبدأُ كتابي باعتذار..

اعتذارٌ لكِ سيدتي،

فبعدَ كُلِّ ما لقنتينِي من أشكالِ الحروفِ ومنطوقِ الكلِمات وبعد كُل ما علمتِيني من دروسِ النحوِ والصرفِ والبلاغةِ والأدب، عجَزْتُ أن أكتُبَ إهداءً يليقُ بكِ، فلا كَلِمٌ يُداني حُسنَ شملِك، ولا وصفٌ يرسُمُ جميلَ سمتِك، ولا شعرٌ يُوفِي حليمَ طبعِك، ولا نثرٌ يجزي رفيعَ قدرِك..

وأُعاهِدُكِ ألا أكتُبَ حرفًا وألا أرسُمَ وصفًا وألا أخُطَّ سردًا يُنافي ما ربيتيني وشببتيني عليه..

من شرَّفَهُ اللهُ بأن يكونَ ابنًا لكِ

أحمد إبراهيم موسى

الفصلُ الأول

قد تُبكينا أشياءٌ صغيرةٌ لأَنَّ أشياء أكبرَ تراكمت قبلها

1

لم يستطع القَمرُ- رُغـمَ اكتماله - تبديدَ ظُلمةِ السماءِ من حوله، غَشِيَتهُ غمامةٌ ضبابيةٌ فظهرَ باهِتًا وتائهًا وسطَ آلافِ النجومِ التي تناثرت تُراقِبُ حيرَتهُ من بعيد، حاولَ جاهِدًا مُضاعفةَ توهجه آمِلًا في إنارةِ الطريقِ أمامَ تلك الفتاة السائرة بخُطىً حثيثةٍ في الشارعِ الرئيسي للمدينةِ التي انقطعت عنها الكهرباءُ للمرةِ الثالثة هذا اليوم، اتسعت عيناها عن آخرِهِما مُحاوِلةً استشكافَ الطريقِ المُعتمِ أمامها، كان سيرُها في الشارعِ الذي خلا أو كادَ من المارة شُذوذًا عن المنطق، لم تبعث وحشةُ الظلامِ فيها الخوفَ كما فعلت عيونُ القططِ اللامعةِ التي تناثَرَت على جانبي الطريقِ بعدما فشلَت في العثورِ على شيءٍ تأكُلُه، هرَّت القططُ وحرَّكت ذيولَها في تَحفزٍ عندما ارتفعَ صوتُ هاتفِ الفتاة، طالعت الاسمَ الظاهِرَ عليهِ في لامُبالاة دونَ أن تُجيب، صعدتْ إلى منزلِها وحيَّت أبَوَيها في عَجلةٍ ثم دلفت إلى غُرفتها عندما عاودَ هاتِفُها الرنينَ للمرةِ الخامسة فأجابَته هذه المرة، جاءَ صوتُهُ مُحتدًّا يسألُها عن سببِ تأخُرِها

حتى الحاديةَ عشرةَ ليلًا فأخبرَتهُ أنها كانت تَتَنَزهُ برِفقةِ صديقاتها، انفعلَ أكثر فقاطعته:

- أنا حُرة، أنا مكنتش بعمل حاجة غلط وبابا نفسه مزعقليش زيك كدا..

- يعنى إيه إنتي حرة؟ لا طبعًا مش حُرة، ومن النهاردة مفيش خروج مع صحباتك تاني بالليل..

ضحكت ضحكةً ساخرة، وقالت :

- نعم؟ ليه خير يارب معلش مش واخده بالي، تكونش جوزي أو حتى خطيبي؟، بقولك إيه، لما تبقى دبلتك في صباعي إبقى قول اللي تقوله بس قبل كدا إنت ملكش كلمة عليا، ويللا علشان عايزه أنام..

- كُنتي لابسه إيه؟..

- وإنت مالك؟..

- أنا لما أسألك تجاوبي..

- يعنى إيه لما تسألني أجاوبك دي؟ إنت اشترتني وللاحاجة؟ ومع ذلك كُنت لابسة بنطلون وشيميز..

بلغَ انفعالُه مُنتهاه وهو يصرُخُ في أذنِها:

- بنطلون بردو؟، مفيش فايدة يا مها؟ مش قلتلك ألف مرة متلبسيش زفت؟..

- أنا كدا وهفضل كدا يا حسام وانسى إني أتغير، متقبلني زي مانا كدا يا أخي..

- يعني إيه مش هتتغيري، إنتي هتلبسي زي مانا عايز مش زي مانتي عايزة، معنديش استعداد أبقى ماشي في يوم من الأيام طرطور ماشي مع الهانم والناس كلها بتتفرج عليكي، ومش هقبلك كدا لأن اللي بقوله هو الصح، لبسك دا مش مقبول في الدين وإنتي عارفه كدا كويس..

- بقولك إيه، لما تبقى أنت صح في كل حاجة بتعملها ابقى تعالى كلمني بالدين، قبل كدا متتكلمش معايا لا في خروج ولا

في لبس ولا في أي حاجة أبدًا، أنا عايزة أعيش حياة تبسطني مش حياة تخنقني، لو بتحبني هتتغير علشاني لأني ببساطة مبتغيرش علشان حد..

قالتها وأنهت الاتصال بدونِ حَرفٍ إضافي، عندما وضعت الهاتِفَ إلى جِوارِها حدثَ شيءٌ نادِرُ الحدوثِ في حياتها، بكت بدونِ إرادَةٍ منها، سالت دموعُها كجَدولَينِ رقيقيْن على وجنَتيْها الخَمريَّتين وانزلقت تروي الزهورَ الحمراء المرسومةَ على وِسادَتِها، آلافُ الأسئلةِ بدأت تغمرُ عقلها، لماذا يُصِرُّ على أن يُحبَّها بهذهِ الطريقة؟ لماذا لا يُحبها على طريقتها هي وليسَ على الطريقةِ الشرقية؟ هي لا تُريدُ رجلًا يسألها أين تذهب ومتى ستعود؟ لا تُريدُ رجُلًا يأمرُها بفعلِ هذا وينهاها عن فعلِ ذاك، تريدُ رجُلًا يُكمِلها لا رجُلًا يحتويها داخله وهو يُريدُها طِفلةً يخافُ عليها، هي ليست كذلك ولن تكون أبدًا، ماذا يضِيرُه إن تأخرت في العودةِ إلى المنزل وما يُؤذِيهِ من طريقةِ هِندامِها؟ لماذا لا يُحاوِلُ فهمَها؟ لماذا لا يُدرِكُ أنها مُتمرِدةٌ بطبعِها؟ تعشَقُ الانطلاقَ ولا تخشى نظرةَ أحدٍ إليها أبدًا، تفعَلُ

كُلَّ ما تُحب دون محاذير أو خوف، لماذا لا يمنحها مساحتَها الشخصية فلا يتدخلُ في أي شيء ليسَ لهُ عَلاقةً بِه؟ لم يسبقْ لها الدخول في عَلاقاتٍ سابقة حتى إنَّ صديقاتها كُنَّ يعجَبن منها، تعترِفُ داخلها أنها أخطأَت عِندما سمحت لهُ بالولوجِ إلى حياتها وبعثرةِ مُخططاتها لنفسها، صحيحٌ أنها لم تقُل أبدًا لهُ أنها تُحبه على يقينِها من ذلك لكنها على أتمِّ الاستعدادِ لنسفِ هذا الشعور إن ظنت لوهلَةٍ أنهُ قد يُؤثِّرُ في شخصيتِها أو ينتَقِصُ من تقديرِها لذاتِها، لم تَبنِ كيانها وكينونتَها على مدارِ سنواتِها الفائتةِ حتى يأتيَ رجلٌ مهما كانت مكانته فيُفكِّرَ مُجردَ تفكيرٍ في التغييرِ منها، تُفضِّلُ دهسَ قلبها تحتَ قدميها بلا رحمةٍ على أن يحدُثَ ذلك، ستبقى كما هي أبدًا حتى لو كانَ آخرَ الرجالِ على وجه الأرض، إن أرادَها حقًّا فليتقبلُها على حالتِها هذه وإلا فليرحل عن عالمِها بسلام، كشطت دموعَها بأطرافِ أصابعِها ونهضت من فِراشها، وقفت أمامَ المرآةِ ونظرَت إلى وجهِها في تحدٍّ صارِم، ضاقت حدقتاها وهي تُتَمتِمُ في صوتٍ عميق: "أنا قوية بنفسي ولنفسي ومش

هضعف لحد مهما كان"، عادت إلى فِراشِها بنفسِ الهدوء، التقطت الدُميةَ التي أهداها إليها يومًا ما ثم ألقتها على الأرضِ بمنتهى القوة وغطَّت في نومٍ عميقٍ وكأنَّ شيئًا لم يحدُث..

2

أمعَنت الشمسُ في رفعِ درجةِ حرارتِها غيرَ آبهةٍ أبدًا لهؤلاءِ السائرينَ تحت أشعتها في هذا الوقتِ من النهار، تفصَّدَت جلودُهم عرقًا في مُحاولةٍ لتلطيفِ حرارَةِ أجسادِهم المُلتهِبة، زاغَت أعيُنُهم وهم يبحثونَ عن رُكنٍ ظليلٍ يأوون إليه، أخرجوا محارِمَهم ومسحوا بها قطراتِ العرقِ التي أغرقت جِباهَهم ورِقابَهم ليمنعوها قبل أنَ تلحقَ بسابِقاتِها إلى داخلِ ملابسهم، على جانبِ الطريقِ وقفَ شابٌّ في أواخرِ العشرينيات من عُمرِه وتثبتت عيناهُ تُراقِبُ حركةَ السيارات، اشتعلَ عقلُه بالأفكارِ حتى صار لهيبُ الشمسِ في هذه اللحظةِ سحابةً من الجليدِ تُظللُ رأسَه، اقتربت سيارةُ أجرةٍ فتأهبَ لها الجميع، تزاحموا عليها وكأنها الصراط الذي سيحملُهم من الجحيمِ إلى النعيم، تكالبَوا يُحاوِلُ كُلُّ واحد منهم الفوزَ بأحدِ المقعدَيْنِ الشاغرَيْنِ، اشرأبت الأعناقُ وتشابكت الأذرُع وتناحرَت الأجساد، وسطَ الحشدِ صرخت فتاةٌ ما ثم سقطت على الرصيفِ من فرطِ التدافُع، لم يكترِث أحدٌ لمعاونتِها على

النهوضِ بل بدا أنَّهم لم يسمعوها على الإطلاق فجميعُ حواسِهم مُنشغلةٌ بأمرٍ مُختلفٍ تمامًا، أهمُّ بكثيرٍ من الاطمئنانِ على فتاةٍ ضعيفةٍ سقطت مَغشيًّا عليها، لم يكُن الشابُّ قد انخرطَ في مُنازعَتِهم على المقعدين مُفضلًا انتظارَ سيارة تالية، التفت إلى جَسدِ الفتاةِ المُمدد في وضعيةٍ مُفزِعةٍ بلا حراك ونظرَ إليها نظرةً شاردةً جوفاء، لم تصدُر منها أيةُ تأوهاتٍ وظلَّت عيناها مُغلقتيْن لفترةٍ أطول من المُعتاد، أنفاسُها البطيئة ترددت في خُفوتٍ شديد وأنبأتهُ أنها ما زالت على قيدِ الحياة، أخرجَ قارورةَ عِطرٍ صغيرةٍ من جَيبِ بِنطاله وأشارَ بها إلى فتاةٍ أُخرى وطلبَ منها مُحاولةَ إفاقَة الفتاةِ المغشيِ عليها، لم يهتم لاستعادة قارورته وأعادَ النظرَ ثانيةً إلى الطريقِ الذي ظهرت عند بدايته سيارةُ أجرةٍ أخرى، قاتَلَ هذه المرة على المقاعِد الجديدةِ الذاهبةِ إلى الجنة ونجحَ في الظفرِ بإحداها مُستغلًا قوةَ جسدِه بالنسبة للباقين، نظرَ نظرةً سريعةً إلى الفتاةِ التي بدأت تستَرِدُّ وعيها والتقت عيناهما في لحظةٍ خاطفةٍ لم تتجاوز مُدتها الثانية ثم انطلقت سيارتُه، بدا المشهدُ أمامه مُختنِقًا

بعوادمِ السيارات وسبابِ الذين لم يتمكنوا من الركوب، اعتصرت قبضتُه هاتفَه المحمول حتى كاد أن يتحطمَ وعقلُه يستعيدُ كُل تفاصيلِ الليلةِ الفائتة، آلافُ الكلماتِ والحروفِ تداعت داخلَ خلايا مُخِّهِ الرماديةِ مُكونةً عشراتِ الجُمَلِ الصادمةِ والقاتلةِ بصوتها، شِجَارٌ يتكررُ مع كلِّ مرةٍ تخرجُ فيها للتنزُهِ مع صديقاتها حتى صارَ الشِّجارُ ركيزةَ أحاديثهم ولا شيء سواه، هزَّ رأسَه مُحدِثًا نفسه، إلى متى سيظَلُّ مُحتمِلًا كلماتها وأفعالها؟ تلكَ التي دخلت حياتَه بصورةٍ مُفاجئةٍ فزلزلت بصلَفِها عرشَ رجولته وأفاقَتهُ من سَكرةِ تسلُطِهِ وجرَّعَتهُ كأسَ الصبرِ في صمتٍ وأسقطَتهُ من قِمةِ البأسِ إلى قاعِ اللاحيلة وأهوَتهُ من عَلياءِ التمكُّنِ إلى قَعرِ التودد، كُلما تقرَّبَ مِنها تمنَّعَت عنه وكلما زادها تدليلًا ازدادت عِنادًا حتى أصبحَ لا يملِكُ من أمرِ قلبه شيئًا، كُلُّ قطرةٍ من دمه تحمِلُ هواها إلى كُلِّ خليةٍ في جسده وتُغذيها به حتى تشبعَت روحُه بعشقِها حدَّ الارتواء، فعلت به ما لم تفعلهُ أيةُ أُنثى قبلَها بل فعلت به كُلَّ ما فعلَه هو بكُلِّ سابقاتِها، لرُبما ساقَها القدرُ

للقصاصِ لهُنَّ منه، كم مِن عبَراتٍ أجراها على وجوهِ من تركهُنَّ خلفه، وجوهٌ ما كانت تستحِقُّ أن تبكي لكنه أبكاها- بقصدٍ أو بدونِ قصد- فأتت من تُذيقُهُ من نفسِ الكأس حتى صارَ يسألُ نفسَه عن الطرفِ الأقوى في تلك العَلاقة المُرهقةِ لقلبه وعقلهِ في آنٍ واحد، ترميهِ في خِضَمِّ صِراعاتٍ نفسيةٍ داخليةٍ حتى أوشكت طاقةُ الصبرِ لديهِ على النفاد بينما تحيا هي بمُنتهى البرودِ غيرَ آبهةٍ له، لم تتصلْ مُنذُ الصباح ولا يعتقدُ أنها ستفعل فقد سنَّت هي قانونًا غيرَ مكتوبٍ بينهما مُنذُ تعارَفا، أن يتصِلَ هو بها ويسترضِيها في حالةِ الشجار حتى لو كانت هي التي أغضبَته، في البدايةِ طابَ لهُ ذلك لكن الأمر صارَ ثقيلًا عليه، في كُلِّ مرةٍ تبوءُ مُحاولاته لرَأبِ الصدعِ الذي أصابَ علاقتهما بالفشل لأنها تعتبرُ محاولاتِه المستميتةَ تلك ضعفًا منه يستوجِبُ قسوةً منها فتمتطي جوادَ تكبُّرِها أكثر وأكثر، هي لا تهتم على الإطلاق ويبدو أنها لن تتغير في المُستقبلِ المنظورِ على الأقل، أكثرُ ما يُوجِعُ استجداء الاهتمام من أشخاصٍ نهتمُ بهم، يعلمُ عِلمَ اليقينِ أنها لم تُفكر في

الاتصالِ به مُطلقًا مُنذُ أمس فيما فكرَ هو في ذلك ألفَ مرةٍ خلال الدقيقةِ الماضية، عندما وصلَ إلى المنزل مسح اسمها من هاتفه فسخرَت منه نفسُه وسألته: "هل هكذا إذن ستمنع نفسك من الاتصال بها؟ على من تكذب؟ ألا تحفظُ رقمها عن ظهرِ قلب؟ أنتَ تعلمُ أنك ستتصلُ حتمًا عاجِلًا أو آجِلا"، وتمامًا كعشراتِ المراتِ السابقة أجرى الاتصال..

3

فترةٌ من الصمتِ جاوزَت الدقيقةَ ظلَّت ألسنتُهُم ساكِنةً في مرابضِها، دقيقةٌ خلت من أيةِ تسليماتٍ أو أسئلةٍ عن الأحوالِ حتى إنَّها خلت من كُلِّ أنواعِ التحايا وبقيت أنفاسُهم وحدها هي التي تترددُ عبرَ الأثير، استدارَت أطرافُ الحديثِ بعيدًا عن عقليهما وانحسرت أمواجُ الحروفِ عن شواطئِ أفواههم فلم يجد أيٌّ منهما نُقطةَ بدايةٍ لنفثِ الجحيمِ الذي يستعِرُ داخله، أخيرًا نطقت هي، جاءَ صوتُها مبحوحًا فخانَ قسوةَ كلماتِها:

- خير؟ عايز إيه؟..

لم يُجِب السؤال، ملأ صدرَه بالهواءِ عن آخرِه ومع زفرَتِهِ جاءَ سؤالُه معجونًا بالمرارة :

- لحد إمتى يا مها؟ لحد إمتى يا بنت الحلال؟ أنا تعبت من حرقة الأعصاب دي كل يوم..

- إنت اللي بتحرق أعصاب نفسك فمتحملنيش ذنبك، إنت اللي غيور أوفر وبتهتم بتفاصيل زيادة، ارتاح يا حُسام، كبر دماغك شوية وفكر في الأهم، سيبك من لبسي وخروجي ودماغي وفكر في اللي بعد كدا لما نكون سوا، هنعيش فين وهناكل إيه؟ مش التفاهات اللي كل شويه بتتكلم فيها دي..

- تفاهات، غِيرتي عليكي تفاهات؟..

- حُسام! طريقتك دي مش نافعة معايا، غيَّر طريقتك يمكن تنفع، أنا مبحبش أتجبر على حاجة، أنا لما أعمل حاجة أعملها بمزاجي..

قاطعها مُحتدًّا وبانفعالٍ غير محدود:

- إنتي أصلًا مش هتتغيري ولا عندك أساسًا استعداد للتغيير، إنتي عاجبك نفسك كدا ومبتقتنعيش بكلام حد أصلًا، وبعدين طالما أنا مُقتنع إن اللي بقوله صح مش هغيره، المفروض حضرتِك تشوفي اللي بقوله صح وللا غلط، لو صح تنفذيه ولو غلط متنفذيش، لكن المسخرة بتاعتك دي ودماغك الناشفة

عمرهم ما هينفعوا غير مع واحد معندوش دم ودا أكيد مش أنا، بجد أنا زهقت..

- زهقت؟ طب تمام، بس متبقاش تقول إنك بتحبني لما مش قادر تتقبلني زي مانا، روح شوف واحدة على مزاجك لأني عمري ما هكون على مزاجك، إنت عايز تهدني وتبنيني من جديد ودا مش هيحصل أبدًا، مش هيحصل..

- أنا لو عايز أهد وأبني كُنت شفت واحده تانيه هدها أسهل بكتير منك لكن إنتي عمرك ما هتفهمي دا، لو مبحبكيش مكنتش استحملت كل الشهور اللي فاتت دي وأنا بسمع منك كلام ميقبلوش أي راجل في الدنيا بس أنا خلاص زهقت ومبقتش قادر أتحمل أكتر، بصي أنا خلاص مش عايز أكمل، إنتي لو آخر بنت على وجه الأرض مش هادعي ربنا أبدًا إنها تكون نصيبي..

- طب تمام، كويس إنها جت منك علشان متشيلنيش ذنبنا بعد كدا، سلام..

أنهت الاتصال فيما ظلَّ هو جامدًا ينظُر لهاتفه ثم أعادَ الاتصال من جديد عِدةَ مرات، في المرةِ السابعة أتاه صوتُها باردًا يسأل:

- أفندم؟..

- إنتي لسه بتكلمى هشام؟..

- إنت متصل علشان تسألني السؤال دا؟..

- رُدي على سؤالي، لسه بتكلميه؟..

- أيوه لسه بكلمه..

سحقت إجابتُها قلبَه، ألفَ مرةٍ طلبَ منها ألا تتحدثَ إلى زميلِها في العملِ الذى سبقَ وأن طلبَ يدَها للزواج، صرخَ حتى أسمعَت صرختُه الكونَ كله:

- ليييييه؟ لسه بتكلميه ليه؟، سايباله الباب متوارب ليه؟ مبتقطعيش علاقتك بيه ليه؟ يهمك في إيه؟ إزاي أصلًا راضية إني أتحرق ألف مرة وإنتي بتردي عليه؟..

- علشان إنت قلتلي اقطعي علاقتك بيه، مش هعمل حاجة حد قالي إعمليها حتى لو كانت صح..

- وإنتي عارفه ومتأكده إنه لسه بيفكر فيكي، أنا بلعتلك كل حاجة قبل كدا بس دي مش هعديها، كُلُه إلا غيرتي، غيرتي هي رجولتي ولو سامحتك في دي مش هسامح نفسي أبدًا طول حياتي، إنتي مش بني آدمة أصلًا ولا بتحسي ولو عندك ذرة عقل مكنتيش تضحي بحد بيحبك بالطريقة دي..

بدون حرفٍ إضافي أنهى هو الاتصالَ هذه المرة ثم قذفَ هاتفَه بمُنتهى الغضبِ في زاويةِ الغرفة فتهشَّمَ تمامًا وتهشمَت معه الثِقةُ بينهما..

الفصلُ الثاني

صِرنا نبني جُدرانَ الصمتِ حولنا كي لا يسمعَ الآخرونَ ضجيجَ الوجعِ في قلوبِنا

1

لم تأبه - كعادتها - للحرارةِ المرتفعةِ وخرجت من بيتها لتبدأ يومًا جديدًا من أيام حياتها الروتينية، حرارة الجو - مثلها مثل الكثيرِ من الأشياءِ - لا تشغل خليةً واحدةً في رأسها، أسدلت غطاء رأسها بني اللون ليقي عينيْها الحساستيْن من أشعةِ الشمس مُخفيًا عن الناظرين إليها آثار الزمن الذي نحتها على وجهها النحيل، هبطت من سيارة الأجرة التي استقلتها من قريتها ثم سارت لأكثر من ربع الساعة، أبطأت في سيرها ثم عبرت الطريق في هدوء لكن سيارة أجرةٍ ما ظهرت من خلفها فجأة، نجح السائقُ المتهور في تفادي الكتلةَ الحية المتحركةَ أمامه مُطلِقًا سبابًا بذيئًا لم يصل إلى مسامعها منهُ شيءٌ، أما هي فأطلقت زفيرًا قويًا من أنفها مع تسارع أنفاسها، سارعت إلى بوابة مصنع الملابس الجاهزة التي تعمل به عاملةِ نظافة منذ أكثر من سبع سنوات، أشارت إلى عامل البوابة كى يُدونَ اسمها في دفتر الحضور بيدها التي لم تُمسك بها قلمًا يومًا قط..

لم يكن المصنع سوى منزلٍ قديم مُتهالك يتكون من طابقين فقط، يشملُ الطابق السُفلي غُرفَ المشغل وغُرفَ العاملين، فيما الطابق العُلوي يحتوي على غُرف الإدارة والمعرض..

دلفت إلى غرفة العاملين، خلعت عنها عباءتها التي حاكتها لها أمها قديمًا، العباءة التي تُقاسِمُها حرَّ الصيفِ وبردَ الشتاءِ وتقلباتِ الربيع، عباءةٌ لم تُبرز يومًا هذا الجسدَ الآخذَ في الانكماشِ حتى صارَ كالعرجون القديم وسترت عن الأعينِ آلافًا من خطوط ِالإهانةِ والألم، وضعت عليها رِداءَ العملِ البالي رمادي اللون، تركت جسدها ممدًا على الأريكة الخشبيةِ المتهالكةِ في زاويةِ الغرفة للحظات، أطلقت من صدرها زفراتٍ حارةً أحرقت شفتيها الجافتين اللتين لم تعرفا منذُ زمنٍ بعيدٍ انفراجةَ الفرحِ أو شكوى الحال، ارتكزت على يدها وتحسست تجاعيدَ خديها الملتهبة من صفعاتِ زوجها في الصباح، صفعاتٌ اعتادتها دومًا من هذا الزوجِ العاق الذي لم يعترف يومًا بتفانيها في خدمته وخدمة أمهِ المُسِنة..

جمعت أدوات النظافة وبدأت عملها، لم تستطع مغالبة الدموع التي سالت على الأرض ثم اختلطت بالماء الذي سكبته، كفكفت دمعاتها ومسحتها بطرفِ رُدنِها، نثرت قليلًا من قطراتِ المُعطِر الذى أكسبَ المكان رائحةً منعشة أخذت تملأ بها رئتيها اللتين اعتادتا على تنفسِ الدخان المنبعث من نارجيلةِ زوجها يوميًّا، مرت على مكتب رئيس العمال وابتسمت ابتسامةً سريعةً مُلقيةً عليهِ تحيةَ الصباح فردَّ الرجلُ النحيلُ تحيَتها بوجهٍ لا مُبالٍ طالِبًا منها تنظيف مكتبه لاحقًا، أومأت برأسها ثم أكملت طريقها في اتجاه غرفة الأستاذ كامل المشرف العام على المصنع، ابتسمت له قائلةً في وُد:

- صباح الورد يا أستاذ كامل..

ردَّ عليها الرجلُ الوقور وهو منهمِكٌ في لملَمةِ أوراقهِ المبعثرة بفعلِ المروحة التي تُسرِّى عليه حرارةَ الجو:

- صباح الفل يا أم محمد، لما ترتاحي شوية الضهرية كده ابقي افتكرينا يا ستي بدل ما إحنا قاعدين في الفوضى دي..

ردت والابتسامةُ تملأ فمَها:

- انت تؤمر يا أستاذ كامل، ده إحنا ننضفهالك برموش عنينا..

ضحكَ الرجلُ لكلماتها ثم سألها سؤالًا معتادًا عن حالها وحالِ أولادها فحمدت الله وشكرت له سؤاله عليها، أتمت عملها عند الظهيرة ثم عادت إلى غرفتها، تناولت كسراتٍ من الخبزِ وقليلًا من الجبن القريش والجرجير ثم اغتسلت وأدت صلاتها، ذهبت إلى مكتبيْ الأستاذين سعيد وكامل، قامت بتنظيفهما ولما انتهت منهما عادت أدراجها إلى غرفتها دونَ ابطاء، خلعت عنها رِداءَ العمل وارتدت عباءتها الأثيرة في وُدٍّ وكأنها اشتاقت إليها بعد يومٍ شاقٍ مُعتاد، يومها هذا تتكررُ تفاصيلُه الدقيقة بمنتهى الانتظامِ والرتابة، أيامها لا تتشابه فقط بل تكادُ تتطابقُ تمامًا كالنُسخ الكربونية..

خرجت من المصنع مشيرةً إلى عاملِ البوابة كي يوقع لها في دفتر الانصراف، سارت في طريق عودتها يُفكرُ عقلها في اللاشيء مُطابقًا الطريقَ الذي تسيرُ فيه بصورة الطريق

المطبوعة فيه طيلة السنوات التي قضاها داخل جُمجمةِ هذه المرأة البائسة، تفاصيل صغيرة تغيرت لكنه اعتادها بمرورِ الأيام رُبما لأنه تطبَّع بعادتها، لا تُفكر إلا في الأشياءِ المهمة فقط والتي غالبًا لا تدور سوى حول أبنائها الأربعة، حتى هي نفسها صارت مُجردَ تفصيلةٍ صغيرةٍ في حياتها..

الشمسُ في شفقها الأحمر آخِذةٌ في المغيبِ خلفَ حقولِ القمح وجَمعٌ من الفلاحين مُنهمِكٌ في حصدِ المحصول، تناثرَ غُبارُ الحصادِ في الهواء وحطَّ على ملابس المارة، لم تتأفف ولم ترتسم على وجهها علاماتٌ للضيق، سارت في الطريق لا تُلقي بالًا لأيِ شيءٍ حولها، لا إلى الطريق غير الممهد المليء بمخلفات الحيوانات ولا إلى الروائحِ الكريهةِ المُنبعثةِ من مصرفِ المياه الذي تسيرُ بجواره ولا إلى الحشراتِ التي تَطِنُّ فوقَ رأسِها طيلةَ الوقت، صارت من فرطِ ما مرَّ بها من أزماتٍ كتِمثالٍ مُتحركٍ لا ينبض فيه بالروحِ إلا قلبُها وعقلُها، فلا وجعٌ يؤثِرُ فيهِ ولا مرضٌ يُقعِدُه، عقلها أصبح في عالمٍ خاص، عالمٍ مليءٍ بالحزنِ والضيق، لكنه عالمٌ لم يتطرقْ إليه

يومًا التذمُّر أو السخط، فاتصالها بربها هو الذي يجعلُها صامدةً حتى الآن..

وصلت إلى منزلها لتجد أُم زوجها الحاجة هانم مُفترشةً أرضيةَ غرفةِ المعيشة تغُطُّ في نومٍ عميق، فيما كان محمود - ابنها الصغير ذو الأربعة أعوام - يلهو بدميته إلى جوار جدته، نادتها بصوتٍ هادئٍ حتى لا تُفزعها:

- أما، إيه اللي نيمك كده؟ مش كنتي ترتاحي جوه عالسرير بدل نومة الأرض اللي تكسر العضم دي؟..

أفاقت حماتها ثم ردت بصوتٍ مكتوم به حشرجة واضحة:

- اتغديت يا بنتي ومقدرتش أقوم من مكاني، ناوليني شربة ميه يا بنتي الله يسترك ريقي ناشف من الحر..

ناولت حماتها كوبًا من الماء ثم عادت فملأته وتركته إلى جوارها، عرَّجَت على غرفةِ ابنتها هند فلم تجدها، تساءلت في نفسها عن سرِّ تأخرِ ابنتها وقد أوشك الظلامُ أن يحِلَّ على

البلدة، ذهبت إلى غرفتها وخلعت ملابسها ثم ارتدت جلبابًا قطنيًّا ناعمًا ووضعت غطاءَ رأسِها ثم صعدت إلى سطحِ المنزل، على الحصيرةِ المُهلهلةِ رقَدَ جسدٌ شبه ميت، مُغطى الوجه بشالٍ اتسخ حتى صار له لونُ الرماد، إلى جواره تنتصبُ أرجيلته المعتادة وأحجارٌ متناثرة وقليلٌ من قُلاحاتِ الذرةِ المتفحمة، على مقرُبةٍ من يدِ الجسدِ استقرت قِطعٌ من مُخدرِ الحشيش في مِنديلٍ مُلوَّن، التقطت المنديلَ ثم ألقت به في بيتِ الدجاج القابع في زاويةِ السطح..

تذكرت أباها الراحل، لكم كانت تود لو أنها تُعاتِبه الآن على هذه الزيجةِ من هذا الرجلِ الفاسد الذي لا يُقدِّرُ لها سعيها عليه خاصةً أنه مُصابٌ بمرضٍ عُضال ينتشِرُ في أنحاءِ جسده وبالكاد تستطيع أن توفرَ من أجرِها ما يتطلبه مرضُهُ من أدويةٍ تعلمُ أن لا جدوى ولا طائلَ من شرائِها، لم تُفكِّر أبدًا في التوقفِ عن شرائها وهذا الزوجُ الوضيعُ يُبدِّدُ إيرادَ إيجارِ أرضِ أُمه في شراءِ تلك المخدرات التي تُفسِدُ جسدَه أكثرَ مما يُفسِدُهُ المرض..

انتهت من تنظيف سطح المنزل في حدودِ السابعة، أعدت طعامًا بسيطًا أخذت في تناوله هي ومحمود الصغير في الوقت الذي دخلت فيه ابنتها هند المنزل، هند – التي على وشكِ الانتهاء من شهادتها الإعدادية بعد أقل من شهر - ذات وَجهٍ مُستديرٍ وبشرةٍ خمرِيةٍ وعينينِ سوداوين كعيني أمها، كانت عائدةً لتوِها من عملها بمتجرٍ لبيعِ المواد المنظفة بالمدينة التي تبعُدُ عن قريتِهم بضعة كيلو مترات، أرسلتها أمها للعمل بالمتجر بناءً على نصيحةِ صديقتها أم حسن كي تُبعِدَ ابنتها عن صنائعِ أبيها من ناحيةٍ وأملًا في توفيرِ بعضٍ من احتياجات الأسرةِ من المال من ناحيةٍ أخرى خاصة بعدما أخبرتها أم حسن أنَّ صاحبَ المتجرِ رجلٌ يُحسِنُ مُعاملةَ من يعملون لديه..

مسحت هند حبات العرق من على جبهتها ثم ارتمت على أريكةٍ بسيطةٍ بجوار جدتها الممددةِ على الأرض وقالت بصوتٍ مُنهَك:

- أنا هسيب الشغل ده إمتى يا أما؟ دي الامتحانات لسالها تلات أسابيع بس..

ردت أمها في عطف:

- معلش يا ضنايا استحملي لنص الشهر وبعدها سيبيه وفوقي لمذاكرتك، بس إنتى إيه اللي أخرك كده لحد دلوقتي؟..

- أصل وأنا مروحة عديت على بيت سماح اللي معايا في الشغل وأمها حلفت لآكل معاهم..

بدا الضيقُ جليًّا في صوت أمها، وهي تقول:

- ليه يا بنتي كده بس، محنا لينا بيت ناكل فيه، ليه ناكل عند الناس؟..

نهضت هند، وقالت مُنفعِلةً بصوتٍ مرتفعٍ أيقظَ جدتها:

- فين البيت دا؟ بيت منعرفش فيه مين الراجل ومين الست، بيت إيه اللي تشتغل فيه عيلة عندها خمستاشر سنة وأبوها طول اليوم بيشرب حشيش فوق السطح؟..

- متعليش صوتك لأبوكي يسمعك ويدور فينا الضرب وإحنا مش ناقصين هَمّ يا هند، معلش يا بنتي بكره تتعدل وتتجوزي راجل يسترك ويريحك من هنا..

- ومين ده المغفل اللي هيرضى يدخل بيتنا ويناسب واحد زي أبويا؟..

كانت قد احتدت أكثر في انفعالها اللامحسوب فبلغَ صوتُها مسامعَ أبيها الذي هبطَ مُتكِئًا على عصاه، جسده الذي أبلاه المرض يئِنُّ من الحركة غير المعتادة، حاول سيد ذو الوجهِ الغليظ والشفتينِ البارزَتين فتح عينيه الغائرتين بصعوبة، زمجرَ بصوتٍ أجش سائلًا عن سبب الصوتِ الُمرتفع، أجابته أمه أنَّ هند كانت تُنادي أمها طالبةً الطعام بعد عودتها من العمل..

ارتفع صوته أكثر وهو ما زالَ غاضبًا:

- إيه؟ هيّ خلاص علشان راحتلها الشغل أسبوعين هتعمل فيها فالحة؟ صوتها ميعلاش تاني وإلا قسمًا عظمًا ما في خروج تاني لا لشغل ولا لمدرسة..

حمدت أحلام ربها على أنه لم يسمع كلماتِ ابنته وإلا كان أذاقها من ألوانِ التعذيبِ ما لا يُطيقُهُ جسدها الضعيف، وجهت حديثها إليه مُحاولةً تهدئةَ مِزاجه وسألته عما إذا كان جائعًا فتُحضِرُ له الطعام، وجَّه نظرهُ إليها بعينيه المحمرتين وسأل:

- مين اللي نضف السطح يا أحلام؟ كان فيه منديل جنبي وأنا نايم، راح فين؟..

- مشفتوش يا خويا، دوّر في جلابيتك وللاأشفهولك تحت الحصيرة؟..

- المنديل كان جنبي يا أحلام وأنا نايم، مكانش فاضي، كان فيه حتة كِيف..

تعلمُ أنه لن يدع الأمرَ يمُرُّ بسلام فإما أن تقولَ له ماذا فعلت بالمنديل وساعتها لن تسلم من بطشِ يديْه وإما أن تستمرَّ في المُداراةِ وعندها سيستمر غضبُه واللهُ وحده يعلمُ إلى أي شيءٍ سينتهي هذا اليوم..

قطعت زمجرته الغاضبة وتلويحه بعصاه أفكارَها عند هذا الحد، بدا متأكدًا تمامًا أنها هي من خبأت ما يبحثُ عنه، حاولت الإنكارَ لكنها لم تتمكن من ذلك فقد سبقت عصاه - التي هوت على منتصف ظهرها - لسانها قبل أن ينطق بشيء، أخذ ينهالُ عليها ضربًا بلا رحمة، حاولت أمُّهُ دفعَه بعيدًا عنها إلا أنه استمر في سبِّه ولعنِه غير مُكترثٍ بلعناتِ ودعواتِ أمه التي تصبُّها فوق رأسه، دفع زوجته دفعةً أخيرةً ارتطمت على أثرها بزاويةِ الأريكة فسالت دماؤها على ثيابِ أمه، شعرت بدوارٍ قوي إلا أنها جاهدت لتركِ عينيها مفتوحتين انتظارًا لمزيدٍ من الإهاناتِ، لكنه فتحَ البابَ وخرجَ ثم صفقه خلفه بقوةٍ فاستسلمت أخيرًا للنومِ على قدمي حماتها..

استيقظت بعد ساعتين، تحسَّست رأسَها فوجدته معصوبًا بقطعةِ قماشٍ تفوحُ منها رائحةُ البُن الذي وضعوه على جُرحِها الدامي لإيقافِ نزيفه، عندما رأتها هند تُفيق قالت:

- محمد اتصل يا أما وقال إنه جاي في الطريق..

ابتسمت أحلام لسماعها الخبر الذي أذهبَ عنها بعضًا مما هي فيه، محمد ابنها يقضي آخِرَ فَترةٍ من فتراتِ تجنيدِه الإجباري، لم ترهُ منذ أكثر من شهر في آخر إجازةٍ له، ارتفع صوتُ النداءِ الخالد من الخارج، رددت كلماته ثم أوصَت ابنتها بألا تقُصَّ شيئًا مما حدث لأخيها..

قبل أن ينتصف الليل حضرَ محمد، ذو جسدٍ طويلٍ وبشرةٍ سمراء لفحتها شمسُ الصحراءِ أكثر وعينين عسليتين داكنتين، وجدَ جدته وحدها في غرفةِ المعيشة فسلَّم عليها وقبَّل يديها ثم سألها عن أمه فأشارت إليه أنها في غرفتها، ما أن رآها على حالتِها تلك حتى ضاقت عيناه في ضيقٍ وقال:

- كنت عارف، طالما مستنيتينش بره يبقى فيه حاجه، مالك يا أما وإيه اللي حصل؟..

قبَّل يديها ورأسَها المعصوب ثم أعادَ سؤالَه فلم تُجبه إلا بلمسةٍ حانيةٍ على وجهه وهي مُدركةٌ تمامًا أنه يعرف السبب فوجَّه سؤالَه لهند:

- عرفنا إنه أبويا يا هند، بس إيه السبب؟..

أخبرته هند بما كان من أبيهِ فنظرَ لأمه ثانيةً ورأى في عينيها رفضًا أقوى للخوضِ في هذا الموضوع، خرجَ ثم اغتسل وارتدى جلبابًا أبيض، بعدَ أن فرغَ من تناول الطعام استلقى إلى جوارِ أمه وسألها:

- صحيح يا أما، سعاد عاملة إيه هي وابنها؟ مشفتهاش بقالي شهرين، مكلمتكيش من زمان؟..

- متصلتش من أسبوع يا محمد، مانتا عارف جوزها مانعها تكلم أى حد من قرايبها، الله يسامحه ويهديه..

- طب وإيه اللي يصبرنا عليه يا أما؟ مناخدها تعيش بيننا..

- والناس تقول علينا إيه يا بني؟ خدوا بنتهم وطلقوها من جوزها؟ لا يبني الصبر، يمكن الحال يتعدل..

أومأ برأسِه مُطيعًا ثم حكى لها بعضًا من المواقف التي حدثت له بالمعسكر لعلهُ يُسلِّيها ويُخرجها قليلًا عن همومها، خرجَ بعدها ليلتقي بأصدقائه الذين لم يرهم منذُ أكثر من شهر ثم عادَ قبلَ الفجرِ بقليل، سمِعَ أصواتًا وضحكاتٍ مرتفعةً أعلى من صوتِ الموسيقى المصاحب لها، ذهب إلى غرفة أمه ليستفسر منها فوجدها تبكي بُكاءً مريرًا وتقطعاتِ أنفاسِها تكادُ تُزهِقُ روحَها، اندفعَ مُسرعًا إلى السطح في اتجاهِ مصدر الصوت، يعرِفُ أنَّ أباه اعتادَ التسامُرَ مع رفقاءِ السوء فوقَ سطحِ المنزل وأنهم يتعاطونَ كافةَ أنواعِ المُحرمات فما الذي يُبكي أُمه هكذا؟ ما الجديد؟ عندما صعدَ إلى السطحِ كادَ أن يُصعَقَ لِما رأى، أبوه ورفقاؤه كالمعتاد متحلِّقون لكن ليس حول النارجيلةِ، بل حول غانيةٍ تتمايلُ في غَنجٍ بينهم كالحية، كتمَ

انفعاله ونادى أباه بهدوءٍ شديد، التفت إليه أبوه لكنه لم يتبيَّنهُ بعد فكرر نداءَه ثانيةً وهو يصُمُّ مسامِعَه عن فحيحِ ضحكاتِ المرأة:

- آبا، أنا محمد يا آبا، لسه واصل دلوقتي..

رد أبوه في لا وعي:

- إزيك يا محمد؟ انزل إنت وأنا هجيلك كمان شوية..

أدارَ وجهه ناحيةَ رفيقهِ المجاور الذي ناوله النارجيلة وأخذَ يتنفسُ دُخانَها بنَهمٍ شديد، أغمضَ مُحمد عينيْه وأحنى رأسَهُ في خزي وامتلأ صدرُه بالغضب الشديد، كم كان يتمنى لو كان هو أبًا لأبيه فيُمسِكُ بتلابيبِ ثوبِه وينهره علَّهُ يزدجِر عن أفعالِه المُشينة، نظرَ نظرةً أخيرةً إليهم وخطَرَ ببالِه أن يركُلَ أشياءهم بقدميْه ويطردهم خارجَ المنزلِ الذي دنسوه بالمخدرات والعاهرات وهو متأكدٌ أنَّه لن يقدِرَ عليهِ أحدٌ في حالتهم هذه، أطرقَ رأسَه ثانيةً وأدارَ وجهه ثم هبط إلى حيث أمه فوجدها على بُكائها المؤلِم، ضاقَ صدرُها وسعلَت سُعالًا

جافًّا كادَ يُمزِّقُ أحشاءها، ناولها كوبَ الماء فأبَت أن تشرب، أراحَت رأسَها على وِسادتها ولم تمضِ لحظاتٌ حتى غطَّت في نومٍ عميق وهو بجوارِها، تطلَّع مليًّا في وجهِها الناعِس، كم هي عجيبةٌ جدًّا!، تبكي وكأنها تبكي لأولِ مرةٍ في حياتها وتضحكُ كأنها لن تضحك بعدها، وعلى الرغمِ من حُزنِها وكمَدِها بمجرد أن وضعَت رأسَها على وسادتِها نامت كطفلٍ وليدٍ لا يُدرِكُ ماهيةَ الحياة ولا يعي أعباءَها التي ستُثقِلُ كاهلَه بعد حينٍ من الزمن، أيةُ شخصيةٍ هذِه وأيةُ طبيعةٍ تلك؟ تتراكُمُ الأحمالُ والهمومُ فوقَ رأسها لكنها لا تمَلُّ ولا تضجرُ أبدًا، لا تشكو ولا تسخط أبدًا، قبَّلَ رأسَها ثم أطفأ مِصباحَ الغرفة وذهب لغرفته ونامَ هو الآخر..

2

مرَّ شهرٌ والحالُ هو الحال، ففي كُلِ ليلةٍ يُغلِقُ مُحمد البابَ على أمه وأخته وجدته حتى لا تصل إليهم تلكم الأصواتُ المُنكَرة والأدِخنةُ المقيتة فتُدَنِّسَ البقيةَ الباقية من حيائهن الفطري الذي قتلَ معظمه هذا الأبُ الجاحد..

وفي ليلةٍ ما عندما بلغَ الصبرُ مُنتهاه صعدَ الولدُ وحادَثَ أباه، قال في لينٍ كي لا يستفِزَّ أخلاقَ أبيه الفاسدة:

- يابا! الله يخليك إنت عندك بنت ومينفعش البت تشوف أبوها جايب رقاصة في البيت، يابا! الله يخليك فكر شوية، فكر في صحتك علشانك يابا حتى مش علشانّا وإن كنت مصمم يبجى بلاش هنا، خليها في بيت تاني من بيوت أصحابك..

- إنت هتحاسبني يا قليل الأدب؟..

قالها السيد مُنفعِلًا ثم رفعَ يُمناه ليصفعَ ابنَه لكن يد مُحمد استوقفته ثم دفعته إلى الخلف، استشاط الأبُ غضبًا، كيف

جرُؤَ هذا الولد على تحدِّيه؟ رفعَ عصاه ثم هوى بها يُريدُ بها رأسَ ابنه، تنحى الابنُ جانِبًا بعيدًا عن العصا ثم أمسكَ بها وجذبها بقوةٍ من يدِ أبيه ورفعها عاليًا، لم ينطِق بحرفٍ واحد وهو ينظُر في عينيْ أبيه بكُلِّ مقتٍ وأسفٍ، أرادَ الولدُ إيصالَ رسالته لأبيه، أرادَ أن يُخبرَه أنَّ زمانَ قسوتِه المفرطة واستبداده الفاسد قد ولَّى وأنه ما عادَ يملِكُ بأسَه القديم، أراد أن يخبرَه أنهم ما عادوا يُطِيقونَ أفعالَه وأنَّ أُبوتَه قد صارت مُجردَ اسمٍ يقترِنُ بأسمائِهم في شهاداتِ الميلاد فقط، حضرَت أمه في هذه اللحظة لتجد ابنها مُمسِكًا بالعصا مرفوعةً أمام وجهِ أبيه، ذُهِلت وتخيلت ما كان سيحدث لو لم تأتِ في هذه اللحظة، فصرخت:

- لا يا محمد إياك، ده أبوك..

قالتها بمرارةٍ وبكثيرٍ من الألم، إنه لا يستحق لقبَ الأبِ هذا، نزعت العصا من يدِ ابنها ودفعته ليهبِطا درجات السُلم معًا

تاركةً زوجَها وحيدًا يُلملِمُ شتاتَ نفسه ويلعنُ هذا الولدَ الذي تجرَّأ على الوقوفِ في وجهه..

استيقظت أحلام في السادسةِ صباحًا كعادتها، ذهبت إلى المطبخ كي تُعِدَّ طعامَ الإفطار قبلَ خروجها إلى عملِها، وجدت طبقًا من العسلِ الأبيض وقطعة جُبنٍ عليها آثارُ الخُبز، بابُ غرفةِ ابنها مفتوحٌ وسريرُه خالٍ ودافئ، أين ذهبَ مبكرًا هكذا ولِمَ لمْ يُخبِرها ليلًا بعزمِه على الخروجِ صباحًا؟ ولِمَ ولِمَ؟ ألفُ لمَ دارت برأسِها، عادَت من عملِها بحِيرةٍ أكثر من تلك التي ذهبت بها، دخلت عليه غرفته لتجده يُجهِز حقيبتَه، بمنتهى الدهشةِ والاستغراب سألته:

- بتعمل إيه يا محمد؟ ورايح فين الساعة دي يا ابني؟..

لم يُجبْها ولم يلتفت إليها كيلا تلتقي عيونُهما، نمَت هواجسها بسُرعةٍ رهيبة، يبدو أنه عازِمٌ على السفر، ما الذي سيفعله غيرَ ذلك وهو يُعِدُّ حقيبتَه رافضًا الإفصاحَ عن نيته؟ وجهت عينيها نحو عينيه مباشرةً وقالت:

- محمد، هتسيبني لمين يا محمد؟ دانا قلت إنت اللي هتريحني من همي، دانت سندي وضهري يا ابني..

بكَت فمزَّقت بآهاتِها نياطَ قلبه، أخذَت تُكرِّرُ اسمَه في كلِّ جُملةٍ علَّه يرِقُّ لها، لمحته وهو يضعُ شيئًا ما في حقيبته، شهقَت شهقةً مُروعةً واتسعت عيناها حدَّ الهلع، صحيحٌ أنها لا تقرأ ولا تكتب لكنها تعرِفُ تمامًا ماهيةَ هذا الكُتيبِ الأخضرِ الصغير، إنه جوازُ سفر، تعالى صوتُ نشيجِها وسالت دموعُها كنهرٍ فاضَ بعدما انهدَم سدُّه..

ركعَ على رُكبتيْه أمامها، أمسك بيديْها وقبلَّهما ثم قال بصوتٍ مُختنق:

- غصب عني يا أما، عايز أشق طريقي..

- تقوم تسيبنا يا ابني وإحنا اللي ملناش غيرك، تسيبنا وتروح بره البلد، طب خليك في أي حتة تانيه جوه، ساعتها نعرف نتطمن عليك..

- البلد تعبانة يا أما وأبويا إنتي شايفاه عمره ما هيعملنا حاجة..

- هتسيبني يا محمد؟..

أوجعته بسؤالِها، أطرقَ رأسَه لأسفل في أسى ولم يُجِبها، مسحت دموعها بيديها وانتصبت واقفة، ثم أدارت له ظهرها وقالت:

- اللي تشوفه يا محمد، اللي تشوفه يا ابني..

زاغت عيناها واستحالت الرؤية أمامها ضبابية، كانت تنتظر أن يفرُغَ من أداءِ خدمته العسكرية حتى يُزيحَ عن كاهلها بعضًا من مشاقِ الحياة فإذا بهِ يُضيفُ ألمًا أشدَّ وطئًا عليها، ألمَ فِراقه، رفعَت يديها إلى ربها وسألَتهُ التوفيقَ لابنها والعونَ لها ثم افترشت الأرض، ضمَّت يديها ووضعتهما تحت خدِّها الأيمن وتركت دموعها تسيلُ في صمتٍ راضِيةً بتصاريفِ القدر..

أخذَ يجاهدُ في وقفِ نِزاعاتِه الداخلية، خذلها لأولِ مرة في حياتِه، اختارَ الهربَ من جحيمِ أبيه على الكفاحِ معها واختارَ المستقبلَ المجهول على الحاضر القاسي، أخذ ضميرُه يلعنُه ويسألُه: "أتترك أمك وحدَها تُصارِعُ الزمانَ والبشر؟ أتُجاهِدُ أمك الحياةَ بالصبرِ وتطعنُها أنت بالهرب؟ أيُّ ابنٍ أنت وأيُّ رجلٍ أنت؟ بل أيُّ إنسانٍ أنت؟"..

ارتمى على السريرِ للحظاتٍ مُحاوِلًا قمعَ الضجيجِ الذي أحدثَه ضميرُه، نهضَ وعدَّلَ هِندامَه، بعدما ألقى نظرةً وداعيةً على بابِ غُرفةِ أمه قتلَ ضميرَه بهدوءٍ، ورحَل..

الفصلُ الثالث

1

انتهت هند من اختباراتِ نهايةِ العام وقبلَ أن تستمتِعَ بإجازتِها الصيفية أعادتها أمُّها إلى العملِ ثانيةً، آثَرت أن تُبعِدَ ابنتها عن أجواءِ البيتِ المقيتةِ خاصةً أنَّ أباها قد فسدَت طباعُه أكثر بفعلِ المرضِ الذي أخذَ ينتشرُ بسرعةٍ أكبر في جسده ولم يعُد يهتم بالدواء مما خففَ من ضغوطِ الالتزاماتِ الماليةِ الملقاة على عاتقِ زوجته التي مرَّت أيامُها كئيبةً بطيئة ولم تكُن تتناول من الطعامِ إلا ما يُقيمُ صُلبَها، على حالها المُستديم ما بين بُكاءٍ على رحيلِ ولدِها ومجاهدِة زوجها الفاسد وما بين مشقةِ العمل وضِيقِ الحياة، تنظُر إلى حماتها وتتساءل كيف يكونُ هذا ولدها وهل كررَ مُحمد معها عقوقَ أبيه لجدته؟ هل كان لخروجِه من صُلبِ هذا الأب ما يُبرِّرُ فعلتَه؟ نفضَت عن رأسها تشبيهَ ولدها بزوجِها فمهما فعل محمد فإنه يومًا لم يقُم بالإساءةِ لأمِّه أو لأي شخصٍ آخر..

في ظهيرة أحدِ الأيام أتى رجلٌ في الخمسينياتِ من عمرِه وسلَّمَ الجدةَ ورقةً مَطويةً ثم أوصاها بسُرعةِ اتخاذِ ما يلزَم، لم تفهم منه سوى أنَّه مُحضَر المحكمة، عندما عادت أحلام من عملِها أعطتها حماتها الورقة، لم تفهم أحلام شيئًا بالطبيعةِ لكن قلبَها أخبرها أنَّ شيئًا كبيرًا سيحدث وأنَّ حضورَ مُحضَرٍ إلى بيتها لا ينُمُّ عن خيرٍ أبدًا، هرِعَت من فورِها إلى منزلِ صديقتها أم حسن، تسارعت خفقاتُ قلبها حتى صارت أسرعَ من خطواتِ قدميها كأنما تتسابقانِ لمعرفةِ سر الورقةِ الكمِين قبل أحلام نفسها، دفعت أحلام الورقةَ إلى صديقتِها طالِبةً منها تفسير مُحتواها، ولما كان ضوءُ النهارِ قد رحل وأم حسن لا ترتدي نظارتَها طلبت من أحلام الدخولَ حتى يتسنى لها قراءتِها فرفضَت وأخبرتها أنها ستنتظر، مرت ثواني الانتظارِ على أحلام كدهرٍ كاملٍ وتخيلت فيها كلَّ أنواعِ الكوارثِ التي يُمكِن أن تحملَها هذه الورقة، ماذا يا تُرى سيُنقَشُ من أحزانٍ على جدارِ حياتها الليلة؟ عادت أم حسن ووجهُها مُمتقعٌ لكن الظلامَ حجبَ ملامحَها عن أحلام التي بادرَتها في لهفةٍ:

- خير يا أم حسن، طمنيني الله لا يسيئك..

بلعت المرأةُ ريقَها وبصوتٍ متهدج أفصحت عن فحوى الورقة، قطعت صرخةُ أحلام المدوية كلماتِ صديقتها ثم سقطت على الأرضِ مغشيًّا عليها..

بعد ساعةٍ تقريبًا أفاقت من إغماءتها، بدأت في تحريكِ رأسها وفتحت عينيها، حاولت الاعتدال وهي تقول فيما يُشبِهُ الهذَيان:

- أم حسن؟ الورقة..

ردَّت هند الجالسة على طرفِ السرير:

- أم حسن لسه ماشية يا أما مع ابنها، الله يباركلهم لما وقعتي عندهم جابولك الدكتور وكشف عليكي وبعدين جابوكي هنا، بيقولوا لازم ترتاحي علشان ضغطك عالي..

ارتفعَ صوتُ أحلام وهي تسأل من جديد:

- فين الورقة؟..

ناولتها ابنتها الورقةَ فأشارت إليها أن تقرأها، قرأت هند الورقةَ بينما تستمِعُ أحلام إليها في سكونٍ تام حتى دخلت الحاجة هانم فسألتها:

- إيه يا أما اللي مكتوب في الورقة ده؟ إنتى صحيح يا أما بعتي البيت؟..

- والنبي يا بنتي ما بعت حاجة ولا فاهمة أي حاجة؟..

- أمال إيه يا أما؟ ده مكتوب إن الحاج عبد الله جارنا عايز يخلي البيت علشان يهده؟..

سكتت قليلًا وكأنها تُفكِّر في شيءٍ ما ثم نفضت عنها غطاءها واستطردت:

- قومي بينا يا أما نروحله ونستفهم منه..

حاولت حماتها إثناءها عن عزمها مُتعللةً بتأخُّرِ الوقت وضعفِ صحتها لكن أحلام نهضت من فراشِها في إصرارٍ عجيبٍ ثم ارتدت ملابسها وانطلقتا إلى بيت جارهم، طرقت بابَ المنزلِ

بعصبيةٍ لاواعيةٍ بصورةٍ أزعجَت ساكنيه، فتحت لهم فتاةٌ صغيرةٌ ورحَّبت بهم طالبةً منهم الانتظار في غرفةِ الضيوف حتى توقظ أباها، بعد رُبع ساعةٍ أتاهم الحاجُ عبد الله مُرحبًا سائلًا عن حاليهما فردَّت أحلام في جفاء:

- حال ميسرش يا حج عبد الله، إيه اللي حصل ده يا حج؟ إيه الورقة اللي مبعوتالنا مع المحضر دي؟ ومن إمتى والبيت اللي إحنا ساكنينه بتاعك؟..

- هو السيد مقالش ليكم؟ غريبة! مع إنه حلفلي إنكم عارفين، وقالي كمان إنكم ناويين تسيبوا البيت وتروحوا تعيشوا في المنصورة..

طلبت الحاجة هانم توضيحًا أكثر، فابتلع الرجل ريقَه ثم قال:

- الحكاية يا حاجة إن السيد كان سالف مني قرشين من زمان ولما جه معادهم قالي اصبر شوية علشان بيخلص في بيت هيشتريه في المنصورة وإنكم هتنقلوا فيه، وعرض عليا يبيعلي البيت فأنا وافقت خصوصًا إن الجدار في الجدار، فكملتله بقية

المبلغ وكل لما أسأله هتخلوا البيت إمتى يقولي اصبر شوية عليا، فعملت المحضر ده علشان أستعجله وأنا معرفش يا حاجة إنه مخبي عليكم..

كانتا تستمعان إليه في ذهول وكلماتُه تهوي كالمطارقِ على رأسيهِما، لم يتخيلا أبدًا أن تبلغَ الوقاحةُ بسيد إلى هذه الدرجة فيبيعَ المنزل الذي يؤوي أمَه وزوجتَه وأولادَه، بعد لحظاتٍ من سكون ما بعدَ الصدمة قالت الحاجة هانم في انكسار:

- طب يا حاج عبد الله بلاش تمشي في إجراءات الإخلا، إحنا يا ابني ملناش غير البيت ده يتاوينا، وإحنا جيرة أبوك وأمك الله يرحمهم..

قالتها وهي تهوي على يدِ الحاج عبد الله تُريدُ تقبيلَهما وساعدَها على العودةِ إلى مكانها وقال:

- جيرتكم على راسي يا أم السيد بس السيد خد مني فلوس..

قالت أحلام بصوتٍ هدَّه الألم:

- هنردهالك يا حاج عبد الله، لو هنقطع من جلدنا الحي هنردهالك، بس بحق الجيرة يا حاج تصبر علينا ويبقى جميلك على راسنا طول العمر..

أومأ الرجلُ برأسه ولم يدرِ ما يقول في هذا الموقفِ العصيب، انصرفتا ولساناهما يلهجانِ بالشكرِ لتفضله عليهما ثم عادتا إلى منزلِهما ترفُلانِ في الانكسارِ والحيرة، بعد ساعةٍ أو أقل عادَ السيد من الخارج، صرخَت أمُّه في وجهه عندما رأته:

- أنت رايح تبيع البيت اللي آوينا يا فاجر علشان تصرف فلوسه عالخمرة والحشيش والنسوان، يلعن البطن اللي شالتك، يا ريتك كنت مت ولا نزلتش من بطني يا فاجر..

انتفخت أوداجُها واحمرَّت عيناها مع الانفعالِ الشديد فيما لم يُلقِ السيد بالًا لها وكأنَّه لم يسمعها ثم صعدَ إلى السطح وكأنَّ شيئًا لم يحدث..

كُل هذا وأحلام لم تنطِق بحرفٍ واحدٍ تُفكِّرُ في كيفيةِ تجهيز المبلغ، والتفكيرُ في الكارثةِ المُحدِقة بعائلتها يكاد يقتلها، ققزت

صورةٌ ما إلى مُخيلتِها من وسطِ أفكارِها، صورة ابنها محمد، تتمنى لو أنه معها الآن كي تضع رأسَها على صدرِه وتبكي، افتقادها له وحنينها إليه طغى على التفكيرِ في حلٍّ للكارثة تمتمَت بشفاهِها واضِعةً يديها أعلى رأسها "آه يا محمد، آه يبني، يا ترى أنت فين؟ شفت أمك والحِزن اللي هي فيه؟"..

ظلَّت تتقلَبُ في فراشِها ولم يغمِض لها جفنٌ طيلةَ الليل، عِندَ الفجرِ سمِعت صوتَ خَطواتِ حماتها بالخارج، خرجَت لتجدها تُصلي رافِعةً يديها للسماء سائلةً ربها أن يُساعدَها في محنتها، توضأت أحلام وبينما هي تُصلي سمِعت صوتَ الباب يُقفَل من الخارج، أتمَّت صلاتها ولم تجِد حماتها، ما الذي تنتويه هذهِ العجوز وجعلَها تخرجُ في هذه الساعةِ المبكرةِ مِن الصباح؟ افترشَت الأرضَ فغلبَها التعبُ أخيرًا واستغرقَت في النومِ حتى أيقظَتها حماتُها، أفاقت ورأت أمامَها مِنشفةً كبيرةً بداخِلِها كيسٌ من البلاستيك أذهلها بمُحتواه، كِميةٌ كبيرةٌ جدًّا من النقود، اتسعت عيناها في شدة وسألت حماتَها في اندهاشٍ عظيم:

- جبتي منين الفلوس دي يا أما؟..

لملمَت حماتها المِنشفةَ وأمرتها بالذهابِ معها إلى منزلِ الحاج عبد الله قبل خروجه، نهضت مذهولة وتبِعت حماتها في صمتٍ يتنافى مع ضجيجِ الأسئلةِ في رأسِها، من أين أتت هذه العجوز بكلِّ هذا المال؟، وكيف بهذه السرعة؟ أخرجتها طرقاتُ حماتِها على بابِ منزل الحاج عبد الله من بحرِ اللاوعي الذي غمرَ عقلها، فتح لهم الرجلُ مُندهِشًا لقدومِهما في هذا الوقت، بعدما رحَّبَ بهما قال:

- والله يا ستي أنا كنت ناوي أروح النهاردة بعد الضهر أوقف إجراءات الإخلا، بس بالله عليكي يا أم السيد تسامحيني..

ردَّت الحاجة هانم في هدوء:

- ولا يهمك يا حاج عبد الله، لو كنا مكانك كنا عملنا كده..

قاطعها قائلًا:

- لا طبعًا يا أم السيد دانتي أم الأصول، لو العيبة طلعت مننا عمرها ما تطلع منك أبدًا..

- تسلم يا حاج عبد الله، إحنا جايينلك في كلمة ورد غطاها، إحنا يا حاج جبنالك الفلوس، خُد منها اللي سيد خده منك وبعدين تعملنا عقد بيع جديد باسم أحلام..

قالتها وفتحت الكيس البلاستيكي أمامه، أحنى رأسَه في خجلٍ ثم نظر إلى السيدتين وقال:

- حد الله أحط إيدي في فلوسك يا أم السيد، سيد كان خد مني تسعين ألف..

شهقت أحلام شهقةً مكتومةً ودقَّت صدرَها بقوة، ماذا فعل السيد بهذا المبلغ الكبير؟ تسعون ألفًا؟ وكيفَ بدَّدَ كلَّ هذا المال؟ وفيم؟..

مدَّت أم سيد يدها للرجلِ بالمبلغ المطلوب ثم لملَمت مِنشفتَها وقامت من جِلستها، أصرَّ ألا تخرُج من بيته قبل أن تتناولَ

طعامَ الإفطار لكنها اعتذرت طالِبةً منه في أدبٍ أن يقومَ بكتابةِ عقدِ البيع في أسرعِ وقت وشكرت له صنيعَه معهما وتفضُّلَه عليهما ثم انصرفتا إلى منزلِهما، همَّت أحلام بإلقاءِ أسئلتَها والفضولُ يقتلُها إلا أنَّ حماتها ذكرتها بتأخُّرِها عن العمل مُشيرةً إلى الساعةِ المُعلقة على الحائطِ، اتجهت عيناها دونَ قصدٍ إلى الصورةِ ذات اللونين الأبيض والأسود المُجاورةِ للساعة، صورةُ زفافِها إلى سيد وقد ابتسمت ناظرةً إلى عينيه واضعةً يديها على كتفيه فيما أحاطَ هو خصرَها النحيف بيديه، لم تعلم حينها أنه سيكونُ أسوأ يومٍ مرَّت بهِ في حياتها، تمتمت بحمدِ اللهِ على قضائه ثم ارتدت ملابسها، أيقظت هند التي زمجرت من تحتِ غطائها لكنها لم تجِد مفرًّا من النهوض، عادت أحلام لتودعَ حماتها فوجدتها قد استسلمت للنوم وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامةٌ خفيفة،

ابتسامةُ رِضًا وارتياح..

2

لامسَ الندى وجنتيها في حَميمِيةٍ واستنشقت نسماتِ الصباح فأحست بانتعاشٍ خفيف، ربما كان الفضولُ يقتُلها إلا أنها لم تدعْهُ يُفسد عليها سرورَ انفِراجِ الأزمة، رفعت عينيها إلى السماء فلما غشيتها الشمسُ بنورها رفعت يُمناها وصنعت منها واقيًا لعينيها..

ماجت شوارِعُ القريةِ بالحركة، قادَ الفلاحون عرباتِهم المُحمَلة بروثِ البهائم بوجوهٍ جامدةٍ خاليةٍ من أي انفعالات، فقط آثارُ النومِ الذي ما زالَ يتمَلملُ في أعينهم يُحارِبُ أجفانَهم في إصرار وكلٌّ منهم يُجالِدُه بفركِ عينيه أو بتمطٍّعٍ لذيذٍ من ذراعيه، لماذا لم يكُن زوجها فلاحًا مثلهم؟ يستيقظُ فجرًا لا أن ينامَ صباحًا، يجتهِدُ في فِلاحةِ أرضِ أمه ويقتاتُ منها فيكفيهم بعضًا من حاجتِهم بدلًا من تركِها تُستهلَكُ من قِبَلِ مُستأجريها بلا نفعٍ يعودُ عليهم..

وصلت إلى المصنع وأشارت الإشارة المعتادة لعامل البوابة، في غرفتها سمحت لنفسها بأن تتمدَّد فوق الأريكة ناظرةً لأعلى واضعة ذراعها الأيمن على جبهتها، احتلت صورةُ ابنها كالمعتاد تفكيرها بالكامل، انفرجت شفتاها وكأنها تَودُّ أن تُخبرَهُ بما حدث من أبيه وكيف قامت جدتُه بحلِّ الموقف بطريقة ما ثم بدا وكأنها تَعِدُه بإخباره بقية القصة حينما تعرفها من جدته، نهضت ثم جمعت أدواتها وبدأت تؤدي عملَها الروتيني، مرَّت على غرفة الأستاذ سعيد فنظفتها ثم على غرفة الأستاذ كامل الذي تجاذبَ معها أطرافَ الحديث سائلًا إياها عن أحوالها وأحوال أسرتها، استمع في اهتمامٍ لِما روته عن قصةِ بيعِ المنزل ثم هنأها بانفراجِ الأزمةِ سريعًا داعيًا لها بدوامِ راحة البال فأمَّنت على دعائه وشكرت له حُسنَ إصغائه وسعة صدره..

بلا أدنى اختلافٍ عن سابقيه انتهى هذا اليوم من العمل، وصلت منزلها في تمام السابعة تقريبًا، وجدت حماتَها المُسِنَّة تغُطُّ في نومٍ عميق مفترشةً الأرض كعادتها تارِكةً النافذةَ

مفتوحةً على مصراعيها حتى تسمحَ لتياراتِ الهواء بالمرور علَّها تُخَفِّفُ من درجةِ الحرارة التي على ما يبدو لم تعُد تُفرِّق بينَ النهارِ والليل وعلى ذراعِها الأيمن ينامُ محمود الصغير في سكونٍ ملائكيٍ بريء..

مرَّت كعادتها على غرفة ابنتها فوجدتها خالية، رفعت حاجبيها فلا تدري أكان رفعُهما للاستغرابِ أم للقلقِ أم للغضبِ أم لثلاثتها معًا، انتهت من استحمامها لتجد ابنتها قد دخلت لتوها، نظرت نظرةً خاطفةً إلى الساعة ثم سألت ابنتها في غضب:

- اتأخرتي ليه يا هند، كنتي فين كل ده؟ الساعة سبعة ونص..

ردَّت هند وهي تتحرك في اتجاه غرفتها:

- وأنا مروحة عديت مع سماح على بيتهم وقعدت مع أمها شوية وبعدين وصلتني للموقف فركبت وجيت..

جذبت أحلام ذراع ابنتها بمنتهى العنف ثم صرخت في وجهها:

- هو كل يوم تعدي على بيت سماح دي، حسك عينك تتأخري بعد كده وسماح دي متعتبيش بيتها تاني، مفهوم؟..

تأوهت هند من شدةِ قبضة أمها فأذعنت للأمرِ في خضوع حتى تتفادى انفِعالَ أمها ثم دخلت غرفتها، ارتمت على سريرها وأخذت تُعاتب نفسها، لقد أصبحت تتأخرُ كثيرًا هذه الأيام حتى أثارت غضبَ أمها والخوفُ كلُّ الخوفِ أن تُثيرَ شكوكَها أيضًا، عليها أن تكونَ أكثرَ حذرًا في الأيام القادمة وأن تعمل على العودةِ مبكرًا قدرَ الإمكان..

طرقاتٌ عصبية دقَّت بابَ المنزل وانتزعتها من تفكيرِها، ذهبت مُسرعةً لترى من يكون الطارق فيما انتصبت أمُها واقفةً تضعُ شيئًا يُغطي رأسها، فتحت هند لتندفعَ أختُها سُعاد نحو أمِها التي ذُهِلت لمَّا رأتها، ارتمت في أحضانِ أمها باكيةً بُكاءً هيستيريًّا، لم يكن سببُ ذهولِ أحلام رؤيةَ ابنتها المفاجئة أو بكائها الرهيب، لم تسأل ابنتها عن سببِ مجيئِها أو حتى عن

سببِ بُكائها فهي تعلمُ مسبقًا، كان سؤالُها ملتاعًا بُكلِّ معنى الكلمة:

- فين حامد يا سعاد؟..

نظرَت سُعاد لأمها بوجهٍ مُتسربِلٍ بالقهر وتدَلَّت من عينيها عناقيدُ المرارةِ والانكسار، كررت أم محمد السؤال في إلحاحٍ قاسٍ غيرَ آبهةٍ لحالِ ابنتها رُعبًا على الطفلِ الوليدِ الذي لم يتجاوز عمرُه السبعةَ أشهر، سعَلت سُعاد سُعالًا شديدًا فجاءت نُخامتُها معجونةً بالدمِ، ردَّت والتشنجاتُ تذبَحُ صدرها:

- طردوني يا أما وخدوه مني؟ شدوه وقالولي زي ما جيتي هنا لوحدك هتمشي لوحدك، ده ابننا مش ابنك..

تضاعفَ ارتياعُ أحلام ألف مرة حتى بدا وكأنَّ وجهها على وشكِ الانفجار وأنَّ عينيها صارتا فتيلًا لهذا الانفجار، مَن لهذا الطفلِ الوليد؟ مَن يُغذيه وقد أبعدوه عن أمه؟ أيُّ قلوبٍ تنبضُ في صدورهم وأيُّ بَشرٍ هُم؟ قالت في صوتٍ خفيضٍ وكأنها تُحدث نفسها:

- ومين هيرضعه؟ ده لسه متمش سنة..

انفجرت سعاد في البكاء وكأنَّ تساؤلَ أمها يخطُر على بالِها لأول مرة، ضمَّتها أحلام إلى صدرها في قوة فتسللَ صوتُ نشيجِ ابنتها المكتوم إلى قلبها فمزقَهُ كسِكينٍ باردة، نظرت عيناها إلى اللا شيء ودارَ عقلُها في اللاوعي، تثبتت كالصنم وقد أسندت ذقنها إلى قِمةِ رأسِ ابنتها، تخيلت حفيدَها الوليد يتلوى من الألمِ والجوع، تتمزقُ أحشاؤه وهو يصرخُ بصوتِه الحاد ضاربًا الهواءَ بكفيه الرقيقتين باحثًا عن ثديي أمه التي لا يعرف لماذا هجرَتهُ وضنَّت عليهِ بعطفِها؟ رفعَت عينيها إلى السماء وطلبَت من ربِّها العونَ وأن يُلهِمَ ابنتها الصبر..

أسبوعٌ مرَّ وسعاد لم تُبدل ثيابها ولم تُغيِّر جِلستها منذ دخلت المنزل، ترتكِنُ إلى الجدارِ بكتفِها الأيمن فيما انثنت ساقاها إلى جانبها، لا تنقطع عن البكاء إلا عندما تفقد وعيها حتى إذا عادت إليهِ لطمَت صِدغيها وشدَّت شعرَها حتى تخلعَهُ من منبتِه صارِخةً باسمِ فلذةِ كبدها، لا تذوقُ طعامًا ولا يغمِضُ لها

جفن، يغشاها الوهَنُ حينًا فيجبِرُها على النومِ لهُنيهاتٍ بسيطة ثم تُفيقُ على اسمِ ابنها، تتخيلُهُ أمامها فتبتسمُ ابتسامةً لا شعوريةً وتمُدُّ يدَها لتتحسسه فلا تجد شيئًا، تصرخُ ثم تبكي وكأنَّ ينابيع العبراتِ في مُقلتيها لا تنضَبُ أبدًا، لا تشعُر بأُمِها التي تُحيطُها بجسدها بينِ الحين والآخر تخفيفًا عنها ولا تسمعُ اللعناتِ التي تصبُّها جدتُها على رأسِ زوجِها وأمه التي حرمت أُمًّا من وليدِها..

عزمت أحلام على الذهابِ إلى قريةِ زوجِ ابنتها لتُحاولَ أن تُقنِعَ العجوزَ القاسيةَ بإعادةِ الولد إلى كنفِ أمِه حتى تُرضعَه وهو الذي لم يذُق طعمَ لبنِها منذ أسبوعٍ كامل، استيقظَت فجرًا وأدَّت صلاتها، نظرت في ألمٍ شديدٍ إلى ابنتها التي بدت كتمثالٍ من الشمع يستَنِدُ إلى الجدار، مسحَت بكفِّها على رأسِ ابنتها فأفاقت من غفوتها ونظرت إلى أمها بعينينِ غائرتينِ كبئرينِ سحيقتين وحولهما عشراتٌ من الهالاتِ السوداء ثم انكمشَت في مكانِها أكثر تُريدُ أن تتلاشى في الجدار، أحنت رأسَها بين ركبتيها وبدأت تبكي في وَهنٍ من جديد..

خرجت أحلام مع خيطِ الشمسِ الأبيض الأول، وجهتْ بصرَها شطرَ السماء واستنشقت الهواءَ في قوةٍ ثم تمتمت: "يارب"، ارتفعَت مخاوِفُها وانخفضت آمالُها بقدرِ ارتفاعات وانخفاضات الطريق غير المُمَهد الواصلِ بين قريتها وقريةِ زوج ابنتها، لا تدري ماذا ستقول لحماةِ ابنتها وكيف ستستدِرُّ عطفَ تلكَ الشمطاء لتُعطيها الرضيعَ الذي أوشكَ على الموتِ جوعًا؟ وصلت البلدةَ في وقتٍ قصيرٍ جدًّا وعلى بابِ البيت المنشودِ طرقَت بهدوء، فتحت امرأةٌ في العَقدِ الثالث من عُمرها تحمِلُ الطفلَ نائمًا، قطّبت حاجبيها في نفورٍ حتى التصقا عندما رأت أحلام التي مدَّت يدها في لهفةٍ تُريدُ تقبيلَ حفيدِها الحبيب، أبعدَتهُ المرأةُ عنها وذهبت إلى الداخل دونَ أن تدعوها للدخول ثم عادت بعد دقائق مُشيرةً لأحلام بالدخول بلا ترحيبٍ أو مودة، في الداخل أسندَت المرأةُ العجوزُ ظهرَها إلى وسادةٍ كبيرة ولم تكترِث بثنيِ قدميْها من بابِ التأدُّب بل قالت في جفاءٍ واضح:

- خير يا أحلام؟ إيه اللى جابك الساعة دي؟..

أجبرت أحلام شفتيها على الابتسام وهي تقول:

- خير يا حاجة إن شاء الله، أنا كنت جاية علشان أشوف اللي متتسماش سعاد عملت إيه؟ وندر عليا يا حاجة لو طلعت غلطانة لأجرجرهالك من شعرها لحد هنا وأرميها تحت رجليكي خدامة..

- معملتش حاجة، أهي غارت وجتلكم، إحنا مش عايزينها..

جنَحَت أحلام للتلطُّفِ في الكلام بعدما رأت حِدةَ العجوز:

- طب يا حاجة أنا طمعانة في كرمك تسيبيلنا الولد لحد ما يتغذى من لبن أمه دي أمه مموته نفسها من العياط ولا داقت لقمة ولا نومة وانتي ربنا يديكي الصحة أم وعارفه..

- يعني إيه أسيبلكم الولد؟ هو إحنا ملناش فيه زي ما ليكوا فيه وللا إيه؟..

- يا حاجة لا سمح الله هو ابنكم قبل ما يكون ابننا وهو شايل اسمكم إنتم، بس الواد بقاله أسبوع مرضعش ونخاف يتعب وللا يجراله حاجة..

قالت العجوز في سخرية:

- لا اتطمني مش مقصرين، بنشربه لبن بقري وأعشاب..

ارتاعت أحلام لمَّا سمعت "لبن بقري وأعشاب" ودار هاجِسٌ مُرعِب بخَلدِها لكنها كالعادة تماسكت قائلةً:

- يا حاجة أنا طمعانة في كرمك، عهد عليا آخد الواد لأمه النهاردة يشبع منها مرة واحدة وأجيبهولك تاني بكره، واللي تُطلبيه ضمان دلوقتي أعمله يا حاجة..

أطرقت العجوزُ رأسَها تُفكر، ثم قالت:

- إخلعي الحلق اللي إنتي لابساه وهاتيه، وهتاخديه لما تجيبي الواد..

لم تُفكر أحلام في حقارةِ المرأة ولا في قيمةِ قِرطيها الذهبيين اللذين لم تخلعهما منذ زواجها، لم تُفكِّر إلا في ابنتها وحفيدها فخلعَت قرطيها وناولتهما للعجوز التي أشارت لابنتها بأن تُعطي الطفلَ لأحلام، تلقفَتهُ ثم ضمَّتهُ إلى صدرِها في قُوةٍ غير مؤلِمةٍ وفي حنانٍ افتقدَهُ كثيرًا، شكرت للعجوزِ فضلَها - رُغم فعلتها الوضيعة بضمانِ حفيدها مقابلَ قِرطين - ثم انصرفت من فورِها خشيةَ أن تعودَ العجوزُ عن قرارها، ابتسمت في رضًا وراحةٍ شاكرةً ربها على فضلِهِ وأقسَمت ألا تستردَّ قرطيها قط، وجهُ الطفلِ الشاحب وجسدُه الواهِن جعلاها تُحدِّثهُ بهَمسٍ من قلبِها: "لا تقلق يا صغيري، دقائق وتكون بين يدي أمك وتعود حفيدي الذي أعرفه"، هرولَت في مشيتِها قاطعةً الطريقَ في زمنٍ أقل من الذي استغرقته ذِهابًا، انتفضت سُعاد عندما وقعَ بصرُها على وجهِ ابنها ومدَّت يدها لتختطِفَ الطفلَ من يدي أُمِها في لهفةٍ مُلتاعة، انهمرت دموعُها فتساقطَت على خديه الغَضَّينِ وارتفعَ صوتُ نهنهاتِها فاستيقظ الطِّفلُ فزِعًا باكيًا وراحَ صُراخُه يشقُّ سكونَ البيت، في عفويةٍ حانية

أخرجت ثديَها وألقمَتهُ فلذةَ كبدِها لكنها صرخَت صرخةً كادت أن تُفجِّرَ بها أُذني وليدِها، صرخةٌ حملت كُلَّ رُعبِ وألمِ وقهرِ الكون، هُنا تأكَّد لأحلام هاجسُها الذي دارَ بخَلدِها في بيتِ حماةِ ابنتها، لقد رفضَ الوليدُ ثديَ أمِّه بعدما منعوهُ عنه قسرًا لمُدةِ أسبوع وهذا ما كانت تخشاه..

قربَت سُعاد ثديَها من فمِهِ مِرارًا حتى كادت تخنق أنفاسَه لكنه في كُل مرةٍ يرفض فارتفعَ صوتُ شهقاتها وهي ترى ابنها يرفُضُ ثديها، صبَّت ببُكائِها المكتومِ كُل عذاباتِها ولعناتِها على رأسِ زوجها وأهله، لقد فُطِمَ الطفلُ قبلَ أن يُكمِلَ عامَه الأول، حرموه من غذائِه الذي منحَهُ إياهُ ربُّه وهو في بطنِ أُمه، أين تذهبُ المسكينةُ باللبنِ الذى يملأ ضِرعيْها؟، ولدُها يتلوى ويتمزقُ أمامَ ناظريها جُوعًا وألمًا ولا تملِكُ لهُ من أمرِها شيئًا، ضمَّتها أمُّها ضمةً حانيةً ثم انطلقت خارجةً من المنزلِ ثابتةَ الانفعالِ يحُثُها على الإسراعِ صُراخُ حفيدِها وبُكاءُ ابنتها، ذهبت إلى منزل الدكتور أحمد واعتذرت منه لقدُومِها في وقتٍ مُبكِّرٍ جدًّا ثُمَّ قصَّت عليهِ كُلَّ شيء، دوَّنَ لها شيئًا ما على

ورقَة ذهبت بها إلى صيدلية القرية فابتاعت المطلوبَ ثم عادت إلى المنزل، سعاد ما زالت تبكي في مرارةٍ أقسى من ذي قبل وهند تحمِلُ الطفلَ وتُهدهِدُه أملًا في أن يكُفَّ صراخَه، دخلت أحلام المطبخ وأعدَّت اللبنَ المُخصصَ لغِذاءِ الأطفالِ الرُضَّع بالطريقةِ التي وصفَها الدكتور أحمد ثم ملأت به قنينةَ الصغيرِ التي يشرَبُ منها، أخذَ الطِفلُ يشرَبُ في نهمٍ واستسلمَ لها تمامًا، قرَّبَتهُ من أُمهِ وهو يتغذَى كي تقرَّ عينُها ولا تحزن، نظرَت إليهِ في حُزنٍ كأنها تعاتبه على تغذِّيهِ من زُجاجةٍ صمَّاء بدلًا من التغذِي منها وهي التي أنجبَته ثم ضمَّتهُ في حُنوٍّ وبدأت تتكَيفُ مع الوضعِ القائِم، رفعَت عينيها المبتلتينِ بدموعِ الامتنانِ إلى أمها ثم قبَّلَت يديها، ربتت أحلامُ على كتِفِ ابنتها وأغمضَت عينيها في رفقٍ كأنها تقولُ إنَّ العذاباتِ آنَ لها أن تنتهي..

الفصلُ الرابع

1

انطلقت أحلامُ وهند تَحُثَّانِ الخُطى بُغية الهربِ من ذِكرى هذا الصباحِ المشحون، كلٌ منهما توشِكُ أن تكونَ متخلِّفةً عن ميعادِ عملها، أغمضَت عينيْها طيلةَ الطريق وراحت تسترجِعُ بعضًا من ذكرياتها القديمة حتى توقفت السيارةُ فانتبَهت كالمستيقظِ من نومه، نظرت لابنتِها قائِلةً في حسم:

- مفيش مرواح مع اللي اسمها سماح دي وإياكي تتأخري، سامعاني؟..

كان صوتُها مُرتفِعًا فلَفَت انتباه المارةِ إليهما، نظرت هند حولها في خجلٍ وأومأت برأسِها إيجابًا ثم سارت في الطريق المُعاكِس لطريقِ أمِها..

أمامَ بابِ المتجر سكَبت سماح الماءَ لتهدئةِ الغُبارِ المُتطايرِ في الشارع الذي يموجُ بالحركة، استنكرت تأخُّرَ صديقتِها على غيرِ عادتها فقصت عليها هند كُل ما حدث، استمعت سماح في اهتمامٍ شديدٍ فشهقَت تارة ودقَّت صدرَها تاراتٍ أُخرى وكأنَّ

الأحداثُ تدورُ أمام عينيها، بعد نحوِ الساعة حضرَ الحاجُّ شرف صاحبُ المتجرِ واطمأن إلى سيرِ العمل، سأل الفتاتين عن حاليهما ثم نقَدهما ثمنَ طعامِ الإفطار وانصرفَ لأداءِ بعض أعماله، لم تجلس هند إلى الطعام فلكَزَتها سماح بمِرفقِها وقالت ضاحكةً غامزةً بإحدى عينيها:

- أنا عارفة بتفكري في إيه، الصبر يا ختي الصبر، كلها كام ساعة، نخلص الشغل ونروح البيت سوا..

لم تستجِب هند لغمزاتِ صديقتها، نهضَت وحاولت التشاغُلَ بالعملِ من جديد بينما يسترجِعُ عقلُها تنبيهاتِ وتحذيراتِ أمِّها صباحًا، ماذا تفعل في سماح التي بدأت في الإلحاح عليها من الآن فكيف بها عندما يحين وقت الانصراف؟ قطعت سماح أفكارها سائلةً في استفهامٍ مُلِح:

- فيه إيه يا بت مالك؟..

ظلَّت هند على صمتِها فتمتمت سماح بكلماتٍ غير مفهومة وباشَرت عملَها من جديد حتى حضر الحاج شرف في

الخامسة وأذنَ لهما بالانصراف، سارا معًا لمسافةٍ قصيرةٍ جدًّا، همَّت سماح بالانعطافِ إلى شارعٍ جانبيٍّ لكن هند استوقفتها قائلةً:

- أنا هروح أنا يا سماح، أمي لاحظت إني بتأخر كل يوم وبهدلتني إمبارح وأنا خايفة..

- يعني إيه؟ معنتيش ناوية تيجي تاني وللا إيه؟..

- لا يا سماح، يومين بس لحد ما أمي تنسى وأبقى آجي معاكي..

- طب ولوهو سألني عليكي، أقوله إيه؟..

- قوليله تعبت في الشغل ومقدرتش تيجي وكمان أمها بدأت تاخد بالها إنها بتتأخر..

مطَّت سماح شفتيها في استنكار وقالت:

- ماشي، أنا هقوله اللي قولتيه، بس إنتي عارفاه، ميحبش الكلام ده..

- حاولي تفهميه إن ده مؤقتًا بس يا سماح، غصب عني..

قالتها بصوتٍ مُختنقٍ ثم مضَت في طريقِها وعادَت إلى المنزلِ في السادسة، تلمَّسَت وجودَ أمِها فلم تجدها فقط جدتُّها المُسِنةُ تُهدهِدُ حامد الرضيع وتُلامِسُ باطِن قدميه وراحتيهِ بأطرافِ أصابعها فيبتسمُ رُغمًا عنه وترتفعُ ضحكاتُه الطفولية مُضفيةً على المنزلِ أجواءً مرحةً لم تعتدها جُدرانه وشاركها محمود الصغير في مُلاعبةِ الطفلِ الوليد الذي كان بالنسبة له دُميةً بالحجمِ الطبيعي..

دخلت غرفتها وبدأت في تغييرِ ملابسها، فكَّت ضفيرتَها ونظرَت إلى وجهِها في المرآةِ تُفكِّرُ، كم كانت غبيةً حين تركت الأمورَ تسيرُ بهذه الطريقة حتى أصبحت واقِعةً بين مطرقةِ أمها وسِندانه ولا تستطيع الفِكَاكَ من أحدهما، خطرت لها فكرةٌ بسيطةٌ، ستقول إنَّ الحاج شرف قررَ زيادةَ عدد ساعات العمل ساعةً إضافية كما هو معتاد في بقيةِ المتاجِر خاصةً خلال فترة الصيف، ستكونُ طامةً كُبرى إذا اكتشفت

أمها عدمَ صحة هذا الخبر لكن من عساهُ يُخبرها؟ هذه أمها فماذا عنه؟ ماذا تفعل معه وهو لا يصبر ولا يتفاهم؟ لقد وجدت مهربًا مؤقتًا اليوم فماذا عن الغدِ وما بعده؟ لم يهتدِ عقلُها لشيءٍ حتى سمعت صوتَ أمها بالخارج..

اجتمعنَ على الطعامِ لأول مرةٍ منذ زمن بعيدٍ، الحاجة هانم وأحلام وهند وسعاد التي تبدَّلَ حالها تمامًا، ارتدت عباءةً وردية اللونِ وأسدلَت شعرَها المُمَشط بعِناية على كتفِيها مُتعطرةً بعِطرٍ فواح وطفلُها الرضيعُ على يديها يرتشِفُ اللبنَ من زجاجتهِ الصغيرة في استسلام، نظرت أحلام إليهما بابتسامةِ رضًا أبعدها الأسى سريعًا عن شفتيها مُحتلًا وجهَها بالكامل، تذكرت مُحمد الذي لا تعلم عنه شيئًا مُنذ غادرَهم، دمعت عيناها وسألت اللهَ أن يُعيدَه إليها سالِمًا ثم انخرطت في الأحاديثِ معهنَّ، للحظةٍ بدا أنها تذكرت شيئًا ما، لم تُخبرها حماتُها عن كيفيةِ تجهيزِ النقودِ يومَ مُشكلةِ بيعِ المنزل فسألتها عن ذلك، أدارت الحاجةُ هانم وجهَها كي لا تواجِه عيناها عيني أحلام وقالت:

- رُحت بعت السبع قراريط للحاج منصور اللي مأجر الأرض، كان نفسه يشتريها من زمان علشان يُضمها لأرضه وياما اتحايل عليا علشان أبيعله وكنت عارفه إنه جاهز بالفلوس في أي وقت..

امتعضت أحلام في أسفٍ مُعقِبةً:

- ليه كده يا أما؟ ده إيرادها كان بيساعد في مصاريف البيت وبيجيب تمن دوا سيد..

انفعلت الحاجة هانم بمنتهى العصبية صارِخةً:

- إن شالله عنه ما أخد دوا ولا يجعله يعيش ساعة واحدة، جايبلنا الفقر ورايح يبيع البيت اللي آوي أمه ومراته وعياله، متجيبليش سيرته، ربنا ياخده..

أطبق الصمتُ قليلًا حتى دقَّت على الباب طرقاتٌ قوية كادت تخلعُه من مكانه، كان الطارِقُ رجُلًا غليظًا مُتجهمَا لوجهٍ

يرتدي لِباسَ الشرطة قالَ بصوتٍ أجش دون أن ينتظِرَ سؤالًا من أحد:

- عايزين الست أحلام تيجي تستلم ابنها محمد من القسم..

اتسعت عيناها وارتفعَ حاجِباها حتى لامسَا منبتَ شعرِها، شهقت من هولِ المُفاجأة ودقَّت صدرَها بكفِها ثم انفجرت براكينُ الأسئلةِ في رأسِها، ما الذي فعلَه مُحمد حتى يصيرَ حبيسَ الشُرطة؟ وكيف انتهى به الحالُ هكذا وهو الذي غادرَ المنزلَ مُسافرًا خارج البلادِ بحثًا عن عمل؟ ألم يُسافِر أصلًا؟ أم تُراه قد سافرَ فعلًا ثم عادَ لسببٍ ما؟ سألت الشُرطي عن سببِ احتجازِ ابنها فأخبرها بأنَّها ستعرف كلَّ شيءٍ لاحِقًا، عرضَت بنتاها الذهابَ معها فرفضت وكأنَّما لا تُريدُ أن تُشارِكَاها فرحةَ لقائه حتى ولو كان المكانُ هو مركزَ الشرطة، اندفعت تُسابِقُ شوقَها إليه وتسبِقُها أسئلتُها التي لم تبرح بعد خلايا مُخها، انتظرت للحظاتٍ كالدهر حتى أتاهَا الشُّرطيُّ بِه، كان أشعَثً نامي اللحية هندامُه غير مُتناسق وعيناه الزائغتان

تدُلانِ على عدم نومِهِ لفترةٍ طويلة، احتضنتهُ طويلًا طويلا وذابَت في جسدِه، أبعدته قليلًا ثم نظرت إلى وجهه الشاحب، وتحسسته براحتيها لتتأكد أنه بين يديها حقًّا وليس مُجرد خيالاتٍ في أحدِ أضغاثِ أحلامِها، أما هو فلم تذرِف عيناهُ دمعةً واحدة وظلَّ صامتًا، عندما هدأت انفعالاتُ اللقاء واستقرت القلوبُ بعد اضطرابها انصرفا من المركز، تأبطت ذراعَه كالأيامِ الخوالي وتشبثت بهِ كأنها تخشى أن تفقدَه ثانيةً، في المنزل تجددت الانفعالاتُ من جديد، نظرَ إليها راجيًا غفرانَها بينما الفضولُ يقتُلها، سمِعا سُعالَ السيد وهو يهبِطُ على درجاتِ السُّلم، أشارَ إلى ابنه بعصاه وهو يقولُ مُتهكِّمًا:

- حمدلله عالسلامة يا سبع البرمبة، مش عملت فيها راجل وقلت مسافر أشتغل، رجعت تاني ليه؟..

وكأنَّ كلَّ متاعب الأسابيع الفائتة لم تكفهِ فأتى أبُوه بسخريتِه السخيفة لزيادتها، لم يرُد على أبيهِ الواقِف على عتبةِ الباب خارِجًا وأكملَ سُخريته لكن لأحلام هذه المرة:

- أهو رجعلك ياختي، مش كنتي بتقعدي تعيطي عليه؟ أهو رجعلك من القِسم..

أرادت أن تصرُخَ في وجهِه بكُلِّ كُرهِها وغيظِها ومقتِها كي يصمُت لكن ما لم تستطعه هي فعلتهُ حماتها:

- يا أخي ارحم نفسك واتهد واسكت بقى، إنت مش مكفيك إننا مستحملين قرفك وعارك وساكتين، وإنت ولا ليك لازمة وعايش على قفا مراتك، غور في ستين مصيبة، داهية لا ترجعك، قِلّتَك أحسن..

خرج وصفقَ البابَ خلفه في عُنفٍ فيما ربتت الجدةُ على كتفِ حفيدها مُهونةً عليه، قبَّل يدها ويد أمه ثم ذهب إلى غرفته ليستريح..

لم تنم أحلام وظلت الأسئلةُ تتقلبُ معها في الفِراش طيلةَ الليل حتى الصباح، نهضَت في لهفةٍ فوجدَته يُصلي بهدوء حليقَ الذقنِ تبدو عليه أماراتُ الراحة، أتمَّ صلاته ونظرَ إليها، يعلمُ أنَّ التساؤلات تملأ رأسها فابتسمَ لها في حنوٍّ وجلسَ إلى

جوارِها، لم يُرِد أن تأكُلها الحيرةُ أكثرَ من ذلك، التمعت عيناهُ وهو يتذكَّر كُل ما مضى قائلًا بصوتٍ مُتهدِج:

- كُنت متفق أنا وواحد صحبي مع راجل فالمنصورة إنه يسفرنا إيطاليا في مركب، اديتله خمس تلاف كنت محوشهم وصحبي زيهم، الراجل اتفق معانا نقابله في مطروح، لما ركبنا المركب شوية شوية بدأ البحر يهيج، كُنا تعبانين جدا بس كنا لازم نستحمل، من بعيد ظهرت لينا أرض افتكرناها إيطاليا، لما قربنا من الأرض لقينا خفر السواحل بيسحبوا المركبة وبيجروها للشط، نزلونا وركبونا عربيات البوليس استغربنا منهم لأنهم كانوا بيتكلموا عربي بس مش بلهجتنا، عرفنا بعدها إننا في ليبيا وإن الراجل نصب علينا وخلى المركب تلف بينا في البحر بالليل وتودينا ليبيا بدل ما تروح إيطاليا، وبعدين هناك رحلونا على مصر..

استمعت أحلام إليهِ واجِمةً تتخيلُ الأحداث منذ رأته يُعِدُّ حقيبته حتى الآن وكأنها فيلمٌ مُصورٌ أمامها، تخيلَت لو كان حدث لهُ

مكروه ماذا كانت تفعل؟ هكذا الإنسانُ دومًا يتخيل الأسوأ إن حدثَ الأفضل، ها هو ابنها عادَ أسرع مما توقعت أو تمنَّت وتراه رأى العينِ فلماذا تُصِر خيالاتها على إفسادِ هذهِ اللحظة؟ نظرَت إليه ثانيةً وابتسمت لأولِ مرةٍ فى ارتياحٍ عميق ثم ودعَتهُ مُصطحِبةً هند وانطلقتا إلى عمليهما كالمعتاد..

2

ألقت هند تحيةَ الصباحِ على سماح فنظرت إليها الأخيرةُ في نفورٍ ثم أدارت وجهها وتشاغلَت بأداءِ عملها، انقبضَ صدرُ هِند من نظرةِ صديقتها وسألتها في خوفٍ:

- سماح، طمنيني، عمل إيه؟..

- قعد يزعقلي ويقولي مجتش معاكي ليه؟ معرفتش أنطق، قلتله تعبت وأمها جت عدت عليها وخدتها من الشغل..

وجمَت هند وأسهمَت تفكر في العواقب، حاولت الانهماكَ في عملِها وتناسِي الأمر فلم يتأتَ لها ذلك، عندما دقَّت الساعةُ الخامسة لملمت مُتعلقاتها واستدارت تُنادي سماح، شهقَت ووضعت يدها اليُمنى على فمِها كي تكتُمَ صرختَها فيما دقَّت باليُسرى على صدرِها لمَّا رأته يقف أمامها، حاولت التحدُّثَ والتغلُّبَ على المفاجأةِ التي ألجمت لسانَها، بلعَت ريقها وتلعثمت عدة مرات وهي تقول:

- و .. ولـ ..وليد، إيه .. إيه اللي جابك، إحم، هنا؟..

حدّقَ في عينيها بصورةٍ جعلت كيانَها من الداخل يرتعدُ خوفًا وبطريقةٍ خلعَت قلبَها من مكانِه وألقته عند قدميهِ، استمر في صمتِه مُتلذِّذًا بتعذيبِها، أخيرًا نطقَ بصوتٍ خفيضٍ عميق وببُطءٍ مقصودٍ هدمَ البقيةَ الباقية من احتمالِها:

- مجيتيش إمبارح ليه يا هند؟..

امتقعَ وجهُها أكثر ودارت عيناها في محجريهما، تجاهِدُ لمنعِ دموعها التي تأهبت كي تسيلَ على خديها واندفعت كلُّ الدماءِ إلى وجنتيها استعدادًا لتلقِّي صفعاته حتى أكسبها تورُّدُهما منظرًا رائعًا يتنافى تمامًا مع جحيمِ الموقفِ الذي تحياه، طأطأت رأسَها ونظرت بين قدميها في انكسارٍ وقلةِ حيلة بعدما عجزَ لِسانُها عن إجابتهِ برَدٍّ يُرضيه، استدار ثم انصرف تحت أنظار سماح التي وقفَت صامتةً تراقبهما، بعد لحظاتٍ قلائِل حضرَ الحاجُّ شرف ولاحظَ الوجومَ البادي على وجهِ هند

فأخبرته سماح بأنَّ وعكةً شديدةً ألمَّت بها هذا الصباح، ربَّتَ الرجلُ على كتفِ هند ثم دعا لها بالسلامة وودعهما..

قادتها سماح كالمسحورة عبرَ الأزِقةِ وانعطفت بها يُمنةً ويُسرةً بدونِ أدنى مقاومة منها حتى دخلا المنزل وما إن رأتها أم وليد حتى مصمصت شفتيها وقالت في غضبٍ ساخِر:

- مجيتيش إمبارح ليه يا غندورة؟ عامله فيها بنت ناس؟..

لم تُجِب هند فردت سماح في سرعة:

- أصل يا أما عندهم مشاكل في البيت وكمان محمد أخوها رجع مالسفر..

انفجرت هند باكية مع ذِكرِ أخيها وكأنما لم تتذكر عودته إلا الآن، نظرت أمُّ وليد إلى ابنتِها وأشارت إليها بإشاراتٍ ما فأخذتها سماح إلى دورةِ المياه، خلعَت عنها ملابسَها وألبستها قميصًا شفافًا أبيضَ اللون ثم قادتها إلى غُرفةٍ جانبية، نظرت هند إليها تستعطفها كي لا تتركها وحيدةً لكن سماح خفضَت

رأسَها هربًا من عيني صديقتِها ولم تستجِب لاستغاثتها المكتومة ثم أغلقت الباب عليها، بعد قليلٍ سمعت صوتَ أخيها الغاضِب وصُراخَ هند، هرولت إلى الغرفة واندفعت داخلها دون استئذان، وجدت هند عاريةً تمامًا على الأرضِ تبكي بُكاءً شديدًا وقد وضعت يديها على وجهها خوفًا من صفعاتٍ جديدةٍ مُحتمَلةٍ بينما وليد يرتدي ملابسه، خرجَ من الغرفة مندفعًا وهو يكيلُ سبابًا بذيئًا لهند، ضمَّت سماح صديقتها إلى صدرها وحاولت تهدئتها فلما سكَنت قليلًا ألبستها ملابسَها وقادتها إلى مكان تجمع سياراتِ الأجرة، ودعتها وقبَّلت وجنتيها في هدوء فيما لم تنبِس هند ببنتِ شفة منذ صراخِها حتى الآن، مع تحركِ السيارة بدأت في تذكُّرِ هذا الجحيم الذي بدأ منذ بداية العام الدراسي المُنتهي، رأته يومًا مع سماح بجوارِ سورِ المدرسة، أخوها الذي يكبرها بثلاثة أعوام، كانت تحكي لها أخبارَه بصورةٍ عفوية، في يومٍ ما أتاها اتصالٌ مُفاجئٌ منه عبرَ هاتفها، سألها عن سماح مُدعِيًا أنها تأخرت عن ميعادِ عودتها، لم تكُن سماح إلى جواره حين اتصلَ بها إذن مما يعني أنه أخذَ

رقمَ هاتفها عن عمدٍ مُسبقًا من هاتفِ أخته ثم تحيَّنَ الفرصةَ للاتصالِ بها، أغلقت الاتصالَ في وجهِه يومها لكنه عاودَ المحاولةَ مرةً بعد مرةٍ دون كللٍ أو ملل حتى رضخت لإلحاحِه وأجابته، أخبرها أنه وجدَ فيها شيئًا ما مُختلفًا على الرغم من أنهُ لم يرها سوى مرةٍ واحدةٍ فقط، كانت تعلمُ أنه يكذب وأنه قالَ هذه الكلماتِ للكثيراتِ قبلها كما أخبرتها سماح عن علاقاتِه بفتياتٍ أخريات، لم ينفِ ما قالته أختُه لكنه أكدَ لها أنها مُختلفةٌ تمامًا عن سابقاتها وأنه رأى فيها من الذكاءِ والنُضجِ ما لم يرهُ في أيِ فتاةٍ تعرَّف عليها من قبل، كانت هذه طريقته في خِداعِ الفتياتِ إذن، يسيرُ ببراعةٍ على نهجِ بني جلدته من الذكور عندما ينصِبون شباكَهم العنكبوتية لاستدراجِ أي أنثى، الطريقةُ التي خدعت كلَّ أنثى على مرِّ العصور مهما بلغت درجةُ ذكائها ومهما كان عمرها هي إخبارها أنها مختلفة حتى لو لم يكُن بها أي شيء يُميزُها حقًّا وحتى لو كانت هي نفسها تعلمُ ذلك، يروقُ للأنثى دومًا الاستماع لهذه الكلماتِ فلا تأخُذ حذرها من هذا الذكر الذي ينوي الطرقَ على مشاعرها،

كثُرَت أحاديثُهما عبر الهاتف كل ليلةٍ بصورةٍ مستمرة حتى صارا يتقابلانِ يوميًّا بعد المدرسة، حدَث كلُّ هذا تحت رعايةِ أخته سماح، تطورت اللقاءاتُ أكثر فصارت تتهربُ من الذهابِ إلى المدرسة، تحمِلُ ملابس أخرى في حقيبتِها لترتديها بدلًا من الزي المدرسي ثم تُمضِي اليومَ معه وفي نهايته تعودُ فترتدي ملابسها المدرسية ثم تعودُ إلى بيتِها وكأنَّ شيئًا لم يكُن، عندما عرضَت عليها أمُّها العملَ بمتجرِ المنظفات لم تُمانع، كانت فرصةً أكبر للقائه قبل الذهاب للعمل خاصةً أن منزله قريبٌ جدًّا من المتجر، كان يمرُّ عليها يوميًّا مع نهاية فترةِ العمل وفي بعض الأحيان كانت تذهبُ معه وأخته إلى منزلِهما وتجلسُ قليلًا مع أمهما ثم تعودُ إلى قريتها، تعددت مراتُ ذهابِها إلى منزله حتى صار شيئًا اعتياديًّا، كانت سماح في بعض الأحيان تنسحِبُ بعيدًا عنهما تاركةً الفرصةَ للعاشقَينِ للاختلاءِ ببعضهما، ظفرَ منها بالكثيرِ من القُبلاتِ المُختلسة، في البداية كانت تُقاوِمه في خجل فيزيدهُ تمنُّعها رغبةً أكثر لكنها بعد ذلك صارت تُبادله القبُلات في نهم، حتى كان ذلك

اليوم الذي تركتهما فيه سماح وحدهما بالمنزل، لعِبَ الشيطانُ لُعبَته، أسكَرَ رأسيهِما وأضرمَ النيرانَ في جسديهما فأحرقَ بها أخضرَها ويابسَه، لم تستشعِر فداحةَ الكارثة إلا بعد وقوعها، لحظةُ لذةٍ امتصَّ فيها رحيقَ زهرتها فذَبُلَت حياتُها قبل أن تبدأ، انقطعت عن الذهابِ إليه لفترةٍ لكنها عادت إليهِ ثانية، لاحظت أنَّ طباعَه تغيرت منذُ ظَفرَ بها، لم يعُد ذلك القلب الحاني الذي يحتويها ولا الأذن المُصغية التي تستمِعُ إليها، أصبحت كالدُميةِ بين يديهِ يُحركها كيفما شاء، ينهَلُ من نبعِ جسدِها ما يروي ظمأَه ويُطفئُ شهوته، غرقت في مستنقعه الآسِن حتى قمةِ رأسها لكنها لم تتوقف عن الذهاب إليه فامتناعها قد يقطعُ عليها فُرصةَ زواجه منها، الزواجُ وحده هو الذي سيمنع الفضيحة، وعدها بأنه سيتزوجها لكنها لا تعلم متى يفي بوعده؟ أعطاها ورقةً حقيرةً تعهدَ فيها بالزواجِ منها متى وصلت إلى السنِ القانونية لكن أيُّ زواجٍ هذا الذي يتعهدُ به وهو الذي لم يُنهِ بعد دراستَه في المعهد وما زال يعتمدُ على أمه في نفقاته؟..

توقفت السيارةُ على مشارِف القريةِ فتوقفَ معها سيلُ ذكرياتها، تخطت الساعةُ السابعةَ بقليل بما يعني أنها تأخرت جدًّا، هرولت في مشيتِها تكادُ تنكفِئُ على وجهِها، ترى وجهَ أمِّها عابِسًا في كلِ عثرةٍ من عثراتِ الطريق ومُظلِمًا كالليلِ الذي بدأ يُحيطُ بها، مسحت دموعها المرتعبة التي انسلّت خِلسةً على خديها، قلبُها يزدادُ خفقانُه أكثر كلما اقتربت من البيتِ واندِفاعُ الأدرينالين في جميع عروقها يرفَعُ حالةَ التأهُّبِ إلى اللونِ الأحمر، ماذا ستقول وبمَ ستتعلل؟ ترنحَ عقلُها داخلَ رأسِها كمُتهمٍ في القفص ينتظِرُ خروجَ القاضي من غُرفة المداولة للنُطقِ بالحُكم، دخلت المنزلَ بهدوءٍ شديد، لم تجِد أحدًا بغرفةِ المعيشة ولم تسمع أيَّ صوتٍ على الإطلاق، تباطأت ضرباتُ قلبِها شيئًا فشيئًا وبدأ روعُها يهدأ وزفرت في ارتياحٍ حذِر، دخلت غرفتها المُظلمة ووضعت يدها على زِر الإضاءة وصرخت صرخةً مُدوية، أمُّها تقِفُ هناك في الظلام ووجهُها لا يُرى منه شيء، اعتصرت أحلام ذراعَ هند بيُمناها وصرخت:

- كنتي فين واتأخرتي ليه؟ مش قلتلك متتأخريش تاني؟..

وضعت هند كفيها على خديها في ردِّ فعلٍ لا إرادي، دفعتها أمها بقوةٍ شديدةٍ فارتطمت بالمرآةِ التي تهشمت مُحدِثةً دويًّا كبيرًا ثم خرجت من الغرفة..

ارتمت هند على الأرضِ إلى جوارِ سريرها تبكي، هل انتهى الموقف أم ما زالت له بقية؟ ولماذا لم تُصرّ أمها على معرفةِ السبب ككُل مرة؟ هل ملَّت أمها من نَهرِها فعزمَت على منعِها من الخروجِ ثانيةً أم أنها تُضمِرُ شيئًا ما؟ انتفضَ جسَدُها وفقدت الشعورَ بما حولها، مع الهاجسِ الذي اجتاحَ رأسَها كطوفانٍ كبيرٍ، ماذا إن كانت نيةُ أمِّها أن تُوكِلَ مَهمةَ تقصي سببَ تأخيرِها لأخيها محمد؟ انفجرت في البكاءِ أكثر وارتعشَ جسدُها من قمته إلى أخمُصه، آهٍ لو علِمَ مُحمد أنها تذهبُ إلى بيتٍ آخر وأنها ترتمي في أحضانِ شابٍّ لا يعلم عنه شيئًا وتتعامل معه كزوجها، أيةُ فضيحةٍ وأيُّ عار؟، بل أيُّ جزاءٍ لها على فعلَتِها؟ سيذبحُها ذبحًا يليقُ بجريمتِها، لا بل سيُغلِقُ

عليها غرفتها عاريةً في صقِيعِ البرد مُقيَّدةً إلى السقفِ ويتركها تموتُ ببطءٍ ثم يَحرِقُ جُثتَها كما فعلَ أحدُهم بابنتهِ في القريةِ المجاورة منذ عدة أشهر، غاصَ جسدُها النحيل في ملابسها لمقاومةِ البرودة التي انتشرت فيه، لم يعُد عقلُها يحتملُ أكثرَ فانهارت مغشيًّا عليها..

"نظرَ مُحمد في عيني أختِه بمقتٍ لم ترَ مثله في حياتِها، اقتربَ منها ثم رفعَ عصاهُ وهوى بها على رأسِها بلا رحمةٍ فانفجرت منها الدِّماءُ كنافورةٍ صغيرة لطَّخَت الجدارَ خلفها باللون الأحمر وأصابت بعضًا منها ملابسه، لم يأبه للدماء التي سالت على وجهِها ولملمَ خُصلاتِ شعرها في يدهِ اليُمنى ثم جذبَها منهُ إلى الخلفِ بلا أدنى شفقة، انثنَت رقبتُها للخلفِ ولم يتحرك جسدُها معه فانتبهت إلى أنَّ يديها مقيدتان خلفَ ظهرِها بنفسِ القيدِ الذى يلُفُّ قدميها، من خلفِ دمائها رأت شرَرًا من اللهبِ يتطايرُ من عينيه وقد عضَّ بأسنانِهِ العُلويةِ على شفاهِه السُفلى، وضعَ يُسراه على رقَبتِها ثم قبضَ على قصبتِها الهوائيةِ واعتصرها بين أصابعه، اختنقت حتى أحسَّت أنَّ

روحَها تجمَّعت في حنجرتِها تنتظِرُ انفراجةَ يدِه حتى تُفارِقَ جسدَها، حاولت أن تشهق لتدفعَ بعضًا من الهواءِ إلى رئتيها أو تزفُرَ لتخرُجَ روحُها وتستريحَ من العذاب فلم تسمح يدُه لا بهذا ولا بذاك، صوتُ تَقَطُّعِ أنفاسِها التي تُجاهِد للمرورِ يُعذِبها أكثر ويُخبرها بأنَّ أجلها قد دَنا، شدَّدَ الضغطَ أكثر وأكثر فيما ترتَجِفُ هي في قيدِها كالعصفورِ الذي تُقاوِمُ روحُه الخروجَ من جسدِه، حاولت أن ترفعَ جفنَيها لتستعطِفَ أخاها حتى يرفعَ عنها بعضًا من العذابِ الذي يَسُومُهُ لها لكنهما أبيا أن ينفَرِجا وصبغت الدماءُ اللزجةُ الرؤيةَ المُشوشَةَ أمامها باللونِ الأحمر، انتفضَ جسدُها عِدةَ مرات فأسلمَت أمرَها لبارِئِها وانتظرت لحظةَ انقضاءِ أجلَها"..

كسا اللونُ الرمادي الفراغَ أمامها، هل صارت الآن في الحياةِ الآخِرة أم أنها لا زالت في حياتِها البرزخية؟ سمعت صوتًا يُنادي عليها من بعيد لم تستطع تمييزَه، دونَ شعورٍ منها بدأت في تحريكِ رأسِها وحاولت فتحَ عينيها فاستجابتا لها في وهَنٍ ثم انغلقتا بسرعةٍ مقاومةً للضوءِ المباشرِ الذي آلمَ منتصفَ

رأسِها، ضغطَت بيدَيها على جبهتِها محاوِلةً تخفيفَ الألم فانتبهت إلى أنهما حُرتان، تذكرت قدميها وسألت نفسها هل تحررتا أيضًا أم لا تزالانِ رهنَ القيد؟ تحركتا لا إراديًا إجابةً لسؤالِها، بدَّدت اللطمةُ الخفيفةُ على خدِّها كُلَّ تساؤلاتِها وأعادتَها إلى الحياةِ البائسةِ مرةً أخرى، عاد الصوتُ يُناديها فميزت فيهِ صوتَ أمها وفتحت عينيها في بطءٍ محاوِلةً استيعابَ ما يدورُ حولها، أمها والدكتور أحمد وأخوها محمد مُتحلِّقينَ حولَ سريرِها، عندما رأت أخاها ارتعدَت واسترجَعت في أقل من لحظةٍ كلَّ ما فعلَه بها أثناء إغماءتها، دوَّنَ الدكتور أحمد الدواءَ الخاصَ بها في ورقتِه ثم ناولَها لمُحمد ليُحضِرَ الدواء، خرجَ فبكَت من جديد تحت نظرِ أمِها التي حاولت أن تستشِفَّ ما يدورُ في عقلِ ابنتها، ما سببُ نظرةِ الرعبِ في عينيها لمَّا أفاقت ورأت أخاها وما يُبكيها الآن؟ لم تسألها عن شيء، تعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّ هناك سببًا ما وحتمًا ستعرِفه قريبًا، سدَّدت إليها نظرةً مُتوعِدةً ثم خرجت وتركت هند تستعِيدُ تفاصِيلَ كابوسِها الدموي من جديد..

الفصلُ الخامس

الليلُ يزدادُ ظُلمةً باليأسِ ويمضي سريعًا بالأمل

1

في تمامِ التاسعةِ انطلقَ صوتُ المنبِّه البغيض، وضعَ يده بسرعةٍ عليه وكتمَ صوته، عندما قررَ مُخترِع المنبه تنفيذه لم يدُر بذهنِه أنَّ هناك أناسًا سيستخدمونَه لإراحةِ ضمائرِهم فقط، يضبطونه ليلًا وكأنهم سيلتزمون به عندما يوقظهم وعندما ينطلقُ يقتلونَ صرختَه في مهدِها، وضعَ الوِسادةَ فوقَ رأسه ثانية، سيأخذ نصف ساعة على الأقل حتى يتخذ قراره بالنزول، مضت ساعةٌ بأكملها قبل أن يُقرِّر النهوضَ من فِراشه، فركَ عينيه بيُمناه ثم نظرَ إلى شاشةِ حاسوبه، لا جديد في الفيس بوك، صديقٌ غيرَ صورةَ حسابه وآخرٌ يشعُرُ بالغضبِ لأن سيارته قد صُدِمَت الليلةِ الماضية، صديقٌ آخرَ أعلنَ خِطبته فانضمَّ بتعليقِهِ إلى عشراتِ المُهنئين، بعدما انتهى من استحمامِه توجَّهَ إلى المطبخ، الأطباقُ غارقةٌ في بركةٍ من الماء في وسطَ الحوض ورائحةُ القُمامةِ تُثيرُ الغثيان، أنواعٌ من الحشراتِ الزاحفةِ تتجولُ على الأرضِ وكأنما نقلت عوالِمَها من أسفل إلى أعلى، فتحَ باب الثلاجة التي خوَت على

عرُوشِها تقريبًا وشرِبَ قليلًا من العصيرِ المُعلَّب ثم عادَ إلى غرفته، لم يكُن البيتُ كريهًا مقيتًا هكذا عندما كانت روحُ أُمهِ الراحلةِ تتجولُ فيه، ارتدَت جُدرانُ المنزلِ ثوبًا من الغُبارِ أكسبَها لونًا رماديًّا داكِنًا حِدادًا عليها ورَكَد الهواءُ بعدما أصابَهُ الهِرَم خلفَ النوافِذِ المُغلقة، ارتدى ملابسَهُ وهو لا يدري هل هي نظيفةٌ أم لا ثمَّ غادرَ البيتَ تارِكًا الوحشَةَ تفرِضُ سُلطانها عليهِ من جديد، استقلَّ سيارةَ أجرة وانحشَرَ بين رُكابِها، لو أنَّهُ سارَ على قدميهِ لتسنَّى لهُ الوصولَ إلى وِجهتِه في وقتٍ أقل من الوقتِ الذي قضاه في السيارة، هبطَ تمامًا أمام الصيدليةِ التي ترفَعُ لافتَتُها اسمَه "صيدلية الدكتور حُسام عبد الله"، تذكرَ أباه الراحلَ الذي ابتاعها لهُ فورَ تخرُّجِهِ من كُليةِ الصيدلة ناقِلًا حياةَ الأُسرة من القريةِ إلى المنصورة، أمام الباب وقفَ عم السعدني بوابُ البِناية مُبتَسِمًا، يقولونَ إنَّ الابتسامةَ تجعلُ وجهَ صاحبِها أجمل لكنَّ هذه المقولة أفسدَها الرجلُ الأصلعُ تمامًا فهو عندما يبتسم تنفَرِجُ شفتاهُ للغاية وتظهرُ من خلفِها بقايا أسنانِه المُتفَحمَة بسبب حرائِق الدُخانِ التي يُشعِلُها ويتنفسُها كل

لحظة، لا يتذكر حُسام أنهُ رأى عم السعدني يومًا بدونِ سيجارته، رائحةُ الدُخان في أيِّ مكانٍ من البنايةِ تَشي بأنه مرَّ فيه، رفع حُسام يُمناه وردَّ تحيةَ الرجلِ ثم دخَلَ صيدليتَه..

مضت فترةٌ طويلةٌ دونَ أن يتحدثَ إلى مها، راودَتهُ نفسُه كثِيرًا عن الاتصالِ بها بعدما قررَ إنهاء علاقتهما لكنه استطاع – حتى الآن - الصمودَ أمامَ إغراءاتِ نفسِه، لا يعلم لماذا طاوَعَ نفسَه الأمارة بالسوء هذه المرة واتصل بها؟ قبلَ أن يتحدث بادرَتهُ هي:

- طب والله كويس إنك لسه فاكرني، افتكرتك نسيتني..

- إنتي عارفه إني أنسى نفسي ولا أنساكي يا مها..

ترددَ كثيرًا قبلَ أن يسألَها طلَبَهُ الغريب:

- مها، عايز أشوفك؟..

الأغربُ من طلبِه كانت موافقتَها على النقيضِ تمامًا من طِباعِها في المواقفِ المُشابِهة..

في اليومِ التالي وفي المكانِ المُتفَقِ عليه وقفت تنتظره، تأخرَ عليها وهي تكرهُ الانتظار، كُلما مرَّت دقيقةٌ إضافية احترقَ عقلُها من الحِيرةِ وقلبُها من الغضب، رفعت عينيها إلى الجِهةِ المُقابلةِ من الطريقِ تستطلِعُ قدومَه، تعجَبَت لمَّا رأتَه يُراقِبُ حيرَتها في جمود، ضاقت حدقتاها وهي تستغرِبُ جُمودَه هذا، لماذا لم يأتها أو يُشر إليها؟ لكن مهلًا، لقد استدارَ مُبتعِدًا عنها، اتصلت بهِ فلم يُجبْها، طاحَ عقلُها من الثورةِ بعدما تركها هكذا في الشارعِ خلفه، نقمت عليه وأقسمت ألا تُجيبَ لهُ اتصالًا مرةً أُخرى، أما هو فقد اجتازَ الاختبارَ الذي وضعَه لنفسِه، كان عليه أن يُطهِرَ قلبَه من عشقِها وأن يُزيلَ من عقلِهِ كُلَّ أثرٍ ينتمي لحِقبَتِها وأولُّ الطريقِ لنِسيانِها هو تحمُّلُ رؤيتِها دونَ أن يُعاوِدَهُ الحنينُ إليها..

هذه المرة أجرى اتصالًا مُختلِفًا، اتصل بياسر، صديقه القديم..

2

جلست أحلام في شُرفةِ المنزل وراقبت بلا هدفٍ الشارعَ الذي غاصَ آخِرُهُ في عتمةِ الليل، انعكسَ بصيصٌ من ضوءِ القمرِ على وجهِها فصنعَ ظِلالًا لتجاعيدِه منحتها مظهرًا مُخيفًا خاصةً مع سكُونِها هذا، أخبرها مُحمد أنهُ ذاهِبٌ للقاءِ صديقِه ياسر الذي لم يرَهُ مُنذُ فترةٍ طويلة، تبادلا نظرةً ذاتَ معنى عميقٍ لم ينجحْ الظلامُ في طمسِه، حاولت إثناءَه عن الذِهابِ مُتعلِلَةً بالظلامِ خاصةً مع انقطاعِ التيارِ الكهربي عن القريةِ بأكملِها لكنه أصرَّ على الذهاب، سارَ مُسرِعًا حتى ذابَ في ظلامِ الليل، أحسَّت بانقباضةٍ جديدةٍ في قلبِها فعلى الرغمِ من اعتيادِها هذا المشهدَ المُظلِمَ كثيرًا لكنها هذه المرة وجدَتْهُ مُختلِفًا، كرِهَت انبعاثَهُ إلى بيتِ ياسر لأنها تشعُرُ أنَّ ما حدثَ بينها وبين ابنها قبلَ سفره كان هو السببَ الرئيسَ في سفرِه..

بعدَ لحظاتٍ من سيرِه عادت الكهرباءُ للسرَيانِ في أوصالِ القرية وبدأت الشرفاتُ تُنيرُ بطريقةٍ غير منتظِمةٍ في مشهَدٍ

مُثير، تحولت القريةُ إلى المنظرِ المألوفِ وتبدَّدَ الظلامُ شيئًا فشيئًا، طفَا شبحُ ابتسامةِ الذِّكريات على شفتيهِ وهو يطرُقُ بابَ منزلِ ياسر، تبادَلا الأحضانَ بحرارةٍ لفترةٍ طويلةٍ تدُلُّ على صداقتِهما التي تعودُ لأكثرِ من عشرينَ سنة ثم رحبَت بهِ أم ياسر، دارَ بعينيه في أرجاءِ المنزل بسُرعةٍ خاطفةٍ في نظراتٍ بدت عفوية ثم دخلَ غُرفةَ الضيوفِ التي لم يلِجْها مُنذُ عامين تقريبًا وعانقَ ببصره جُدرانَها الرمادية التي عُلِّقت عليها فروعُ من الوردِ البلاستيكي، نادى ياسر على أمِّه حتى تطلُبَ من أُختِه إعدادَ الشاي فأخبرَتهُ أنها نائِمة، اختلجَ قلبُ مُحمد فقد كانَ يُمنِّي نفسَهُ برؤيتها، لم يكُن ياسِر يعلمُ ما في قلبِه ولم يجرؤ مُحمد يومًا أن يبُوحَ لصديقِه بأن قلبَه مُتيَّمٌ بها، لاحظَ ياسر شُرودَ صديقِه فسأله عن السبب، هزَّ مُحمد رأسَه بلا إجابةٍ ثم قصَّ عليهِ تفاصيلَ رحلته التي باءت بالفشل وشكا لهُ عدمَ استطاعته إيجادَ عملٍ مناسبٍ يوفِّرُ له دخلًا جيدًا حتى الآن، تسامرا حتى الثانية صباحًا ثم انصرفَ على وعدِ اللقاءِ غدًا أو بعدَ غدٍ على أقصى تقدير، خرجَ حزينًا لأنه لم يستطِعْ

رؤيتها، اشتاقت عيناهُ لعينيها الدافئتين المسكُونتينِ دومًا بالحُزنِ - حتى لو كانت هي في قمةِ الحبورِ والفرح – شوقَ شاطئٍ لموجَةٍ رحلت مُنذ أمدٍ بعيدٍ وأخلفَت موعِدَ اللقاء لا يدري أضلَّت طريقَها في البحارِ أم ذابت على رِمالِ شاطئٍ آخر..

رحاب..

رحاب التي تصغرُهُ بثلاثةِ أعوام، رحاب التي رافقَته هي وأخوها إلى المدرسةِ صِغارًا، يتهامسانِ ويتضاحكان ولا يُلقيانِ بالًا لأيِ شيءٍ في هذهِ الحياة حتى الأمسِ القريب، لكنهما ما إن صارا في حُكمِ الفتى والصبيةِ حتى باعدت التقاليدُ بين جسديهِما مُلهِبةً جذواتِ العشقِ في قلبيهما وصارَ الحديثُ بينهما عبرَ الهاتف فقط، تمنى كثيرًا لو كان فتىً غربيًّا يستطيعُ أن يحادِثَ فتاتَه ويُسامرَها ويُضاحِكَها، يتنزَّهُ معها ويسكُبُ في مسامِعها كلماتِ الهوى التي يصيغُها قلبُه بمدادٍ من دمِه، هل

ستواتيه الفُرصةَ للاعتذارِ لها عندما سافرَ دون عِلمِها؟ وهل ستُعطيهِ هي تلكَ الفرصةَ فضلًا عن العفو عنه؟..

توقفَ عندَ الجَدولِ الصغير الذي ينسابُ موازيًا للطريقِ، كان الجَدولُ رائِقًا في منتصفه يعكِسُ ضوءَ أعمدةِ الإنارةِ الصفراء فيما تهتزُّ صورةُ القمرِ في قاعِه مع حركةِ المياهِ الهادئةِ على جانبيْه، على الجانب الآخر تدلَّت وُريقاتُ شجرةِ الصفصاف ناحية الجدولِ، لم يتأثرْ سُباتُها العميق بصوتِ الهواء الذي تسللَ بين فروعِها حتى أيقظتها آياتُ القُرآنِ الكريم التي انطلقت من مُكبِّراتِ صوتِ المسجدِ المقابِل للشارع إعلامًا بدخولِ وقت صلاة الفجر..

دخلَ المسجدَ ثم توضأَ واستعدَّ لصلاتِه، تأملَّ الأعمدةَ الرُّخاميةَ والآياتِ المكتوبةَ على جُدرانهِ العُلوية بمهارةٍ فائقة، طَالعَ باطِنَ القُبةِ نصف الكروية ثم أغلقَ عينيهِ ورفعَ يديْه مُناجيًا ربه، بعد تمامِ الصلاةِ بوقتٍ طويلٍ خرجَ من المسجِد، نازَعَهُ الحنينُ إلى طفولتِه فارتقى سُلمَ المِئذنة، لطالما ارتقاها صغيرًا

هو وياسر وكان الشيخُ عبد اللطيف ينهرهُما خوفًا عليهِما، كم افتقدَ شيخَهُ كثيرًا، لم يرَهُ منذُ أكثر من خمسِ سنواتٍ عندما ارتحلَ الشيخُ وعائلتُه عائِدينَ إلى بلدتِهِم الأصلية بمحافظةِ الشرقية، افتقدَ يدَه الحانية التي كانت تزرعُ الاطمئنانَ في قلوبِ أطفالِ القرية وصوتُه الذي كان يبعثُ الرُعبَ في نفوسِهم إذا ما أثاروا ضجةً أثناء أوقاتِ الصلاة..

في مخاضٍ يسير وُلِدَ قُرصُ الشمسِ الأصفر من خلفِ الحقول وانكمشت مع ولادتهِ قِطعُ الليلِ الجاثمةُ على فضاءِ القريةِ مُنذ المغيبِ أمس، تسللَ الهواءُ الُمنعِشُ البِكرُ إلى رئتيه فغسَلَ روحَه المُضطربة، كم يعشقُ هذه اللحظةَ التي ينبلِجُ فيها النورُ فيبعثُ الأملَ بقلبه، كم مرةٍ اختفت الشمسُ وحلَّ الليلُ مكانَها ناشِرًا بظلامِهِ الخوفَ والفزَع، قِلةٌ من البشرِ فقط هم الذين يشعرون بالطمأنينةِ والسكينةِ فيه، هؤلاء الذين يعلمون أنَّه مهما طالَت عليهم عتمةُ الليلِ ستُشرِقُ الشمسُ من جديد، كُلُّ ما عليهم هو الانتظارُ بصبرٍ ورجاء..

اكتملَ قُرصُ الشمسِ الذهبي فكان اكتمالُه جرسًا دوَّى في أرجاءِ الكون، خفَّفَ الضبابُ قبضتَه على الأرضِ تدريجيًّا، انطلقت الطيورُ خِماصًا تبحثُ عن طعامِ فِرَاخِها التي تتلوى جوعًا في أعشاشها، فُتِحَت أبوابُ البيوتِ ونوافذُها في تتابعٍ سريع وخرجَ الفلاحون إما راكبينَ مطاياهُم أو سائرينَ بجوارِها، فتياتٌ وفتيةٌ صغار حملوا مِشناتِ الخُبزِ الشبكية فوقَ رؤوسهم قاصدينَ مخبزَ القرية..

هبطَ درجاتِ سُلمِ المِئذنة مُنهيًا صباحَ الشجنِ والأملِ هذا وسار في طريقِ عودته الذي تغيرت حالُه بعد بضع ساعاتٍ فقط من السكونِ - أو قُل الموت - إلى الحياة..

ككُلِّ مساءٍ انزوَت في رُكنِ سريرِها الخشبي الذي تعلوهُ صورةُ شخصيتها الكارتونية المفضلة مُمْسِكَةً هاتفَها، انزلقت أصابعُها المُبللةُ على شاشتِهِ بسهولة، رفعت يدها إلى أنفها وتشممتها، ما زالت أطرافُها تحمِلُ رائحةَ الصابونِ الخاص بغسيلِ الأطباق الذي يُعَدُّ آخرَ إجراءاتِ روتينها اليومي، تجولت عيناها ببطءٍ في أرجاءِ غرفتها، دولابُها الخشبي العتيق يرتجِفُ في مكانه الذي لم يبرحْهُ منذ سنواتٍ وقد التصقت أقدامُه بالأرضِ تحتَهُ في حميميةٍ صماء، رقدَ حاسُوبها القديم فوقَ مكتبِها في سلامٍ وجاورَتهُ بعضُ الكُتبِ التي احتفظت بها منذُ العامِ الدراسي الفائت تعلوها ذراتٌ من الترابِ دلالةً عن طولِ الفترةِ مُنذُ آخر مرةٍ فُتِحَت فيها، توقفت عيناها عِند قارورتيْ عطرٍ فارغتين مُتجاورتين على سطحِ المكتب، إحداهُما أكبرُ من الأخرى بكثير، الكُبرى كانت آخرَ هداياهُ لها قبلَ أن يرحلَ كعادةِ بني جنسِه غيرَ آبهٍ لها وتارِكًا إياها في لُجَّةِ بحرٍ من الحيرة بدونِ أي خيطٍ خلفه يقودُ إليه،

رحلَ فجأةً دون أن يودِّعَها أو يتعللَ بأيِ سبب، تبخرَ أو تسامى كأنَّهُ كان عدَمًا لم يُخلَق، بكَتْهُ كثيرًا حتى ابيضَّت عيناها ولم تنجح الأيامُ في لَئمِ جراحِها بل زادتها سُوءًا، أذاقها عذاباتِ الرحيلِ دونَ ذنبٍ ارتكبته فماذا كان يضيرهُ لو أخبرَها؟ أما القارورةُ الصُّغرى فكانت تذكِرةً لذاك اليومِ الذي سقطَت فيه مغشِيًّا عليها فأفاقت على رائحتِها، أليست هذه إحدى مُفارقاتِ القدر؟ أحدُهم أهداها عِطرًا يُوجِعُها ويُذَكِّرُها برحيلِه عنها وآخَرٌ تركَ عِطرَهُ خلفَه كي يُعيدَها ثانيةً إلى وعيِها وإدارِكِها، صارت القارورةُ الكُبرى رمزًا للألمِ الراسخِ في قلبها وأصبحت الصُّغرى رمزًا للأملِ المُهترئِ في عقلِها..

تصفحت حساباتِ صديقاتِها في موقعِ التواصل الاجتماعي - فيس بوك- مئاتُ الكلماتِ المُتضاربةِ والمُتشابكةِ عن الرحيلِ والخيانةِ وعن التحملِ والصبر، عنِ الفقدِ والأسى وعن الحنينِ والشوق وكأنما اتفقن فيما بينهنَّ اتفاقًا ضِمنيًّا على زيادةِ أوجاعِها وتذكيرِها بالهُجران بالإضافة إلى إسالةِ دموعِها..

بلَّلت دموعُها شاشةَ هاتفها فوضعَته إلى جوارِها ثم استلقَت على ظهرها تمامًا وأخذت تنظرُ إلى سقفِ غرفتها، شقَّت دموعُها نهرينِ صغيرينِ على جانبيْ رأسِها فصبَّا على شُطآنِ وسادتها، حملت هاتفها من جديد وتصفَّحت رسائلَه القديمة، استحالت الرسائلُ إلى مئاتِ الأنصالِ الحادةِ ومزَّقَت قلبَها بلا رحمة، أجفلت عندما انطلقَ صوتُ هاتفها فجأةً بين يديها وظهرَ اسمُ صديقتِها الأثيرةِ بسمة، ظلَّت تنظُر إلى الهاتفِ في شرود وكأنَّ عقلها لم يستوعب بعدُ هويةَ المُتصِل، فتحَت الاتصالَ دونَ أن تنطِقَ حرفًا واحدًا، أتى صوتُ بسمة مُفعمًا بالقلق:

- رحاب مالك؟ مبتتكلميش ليه؟ شكلك كنتي نايمة، عالعموم أنا هاجي وأعدي عليكي بدري علشان نروح الكلية سوا، الدراسة بدأت بقالها أسبوعين وإنتي منزلتيش الجامعة ولا مرة..

أجابها الصمتُ بدلًا من صديقتها، توجست نفسُها خِيفةً عندما نقلَ لها الهاتِفُ صوتَ بُكاءٍ مريرٍ، تركتها تُفرِغُ شَحنتَها في

هدوءٍ حتى هدأت وتيرةُ النحيب شيئًا فشيئًا، لملمَت رحاب شتات نفسها ثم قالت في لهجةٍ قاطعة:

- مش هروح..

لم تجد بسمة شيئًا تقوله، تعلمُ ما يدورُ في نفسِ صديقتِها لكن واجبَ صداقتهما يُحتِّمُ عليها أكثرَ من مُجردِ الصمت فقالت في حسم:

- هعدي عليكي الصبح بدري وهخليكي تنزلي غصب عنك، ياللا سلام..

انفجرَت رحاب باكيةً من جديد ولفحَت آهاتُها الحارقةُ راحتيها، بقيت على حالتها حتى أنهكها الوجعُ تمامًا فغطَّاها الوسَنُ بجناحِيه..

لم تدرِ كم من الوقتِ نامت حتى أحسَّت ببسمة عِندَ طرفِ السريرِ تهُزُّها هزًّا، انكمشَت في سريرِها أكثر وأدارت ظهرها لكن بسمة نفضَت عنها الغطاءَ ثم قالت في غضَبٍ مُصطَنَع:

- ياللا يختي مش ناقصين دلع..

صرخت رحاب صرختَها المكتومة احتجاجًا ثم اعتدلت في سريرها ثم قالت في تحدٍّ:

- قلت مش رايحة..

في نفس الوقت دخلت أمها حامِلةً طعامَ الإفطار، لا مفرَّ إذن من النهوض، اغتسلت وأدَّت صلاتها ثم ارتدت ملابسها في صمت، لم تذُق شيئًا من الطعام ولم تُحاول بسمة نُصحَها بأن تفعل..

لم تُخالِف المنصورة عادتَها في نفسِ هذا التوقيتِ من كُلِّ صباح فازدحمت بآلافِ السيارات والبشر وأدخلتهم في محرقةٍ كبيرةٍ للأعصاب تأكُلُ ساعاتٍ من العُمرِ يوميًّا، لم يختنق صدرُها من الزحام ولا من عوادمِ السيارات بل على العكسِ تمامًا كان الزحامُ الخانقُ طوقَ نجاتِها الذي يؤخِّرُها قليلًا عن الجحيمِ الذي ينتظرُها هناك على بابِ الجامعة، تطلَّعت إلى وُجوهِ الأطفالِ التي ما زال النومُ يملأ تجاويفَها الدقيقة، وجوهٌ

حالمةٌ بريئةٌ لم تختبر بعدُ قسوةَ الحياة، لو أنها علِمَت كيف ستكُونُ حياتُها حين تصيرُ يافعةً لدعت اللهَ منذ نعومةِ أظفارها أن يُبقيها طفلةً أبدَ الدهر، طفلةٌ مبلَغُ همِّها أن تعقِصَ شعرَها كذيلِ حُصانٍ جامحٍ مُعانِدةً أمَّها التي تُصِّرُ أن تجدُلَه على هيئةِ ضفائر، طفلةٌ لا يشغَلُ بالها سوى العرائسِ والدُّمى ولونِ الشمسِ البرتقالي في أقصى الزاويةِ العلويةِ من ورقةِ الرسم، أغمضَت عينيها لوهلةٍ فترقرَقَت منهما دمعتان صافيتان كحبتين من الماس لم ينجح كُحلُ عينيْها في تلويثِهما، على مرمى البصرِ تنتظِرُها بوابةُ الجامعة التي يقبعُ الجحيمُ في أقسى صُوَرِه خلفَ قُضبانِها الحديدية، جحيمُ الذكريات، مرَّت بسمة مُبرِزةً بطاقتها التعريفية وكذا فعلت رحاب، شهقت بصعوبةٍ قليلًا من الهواء قبلَ أن تعبرَ البوابة ومع عبورِها أطلقَت زفرةً ظنَّت بسمة على أثرِها أنَّ روحَ صديقتِها قد صعدَت إلى السماءِ بعد أن سقطَت رحابُ على الأرضِ بِلا حراك..

عندما أفاقت من غيبوبتِها كانت بسمة تقبِضُ على راحتِها بمنتهى القوة مُمسكةً باليدِ الأخرى قارورةَ العِطرِ الصغيرة ذاتها، لم يكُن ذهنُها قد استعادَ عافيته بعد لكنَّ آلاف المشاهِدِ تتابعت أمام عينيها بلا انقطاعٍ في تتابُعٍ رهيب، يومًا ما جلسا هنا وتضاحكا هناك وهنالِك كان آخر لقاءٍ لهما، عندما استعادت رُشدَها وإدراكَها بالكامل استعادت معهما قُدرتها على البكاءِ من جديد وكالعادة لم تُفلِح بسمة في تهدئتها، ساعدَتها في النهوضِ آمِلةً أن تكونَ هذهِ نهايةَ الأمر لكن على النقيضِ تمامًا لم تكُن هذه سوى البداية، سارت رحاب كالمسحورة في اتجاهِ شجرةٍ ما، تعلمُ بسمة تمامًا ماهيةَ هذهِ الشجرة ما جعلَها تدعو من أعمقِ أعماقِ قلبِها "رحمِتك يا رب"، لم تكُن الشجرةُ سوى شجرتهما التي اعتادا اللِقاءَ عندها، تحسست رحاب جِذعَ الشجرةِ من زاويةٍ ما فلامسَت أناملُها حرفي "ر ، م" منقوشَينِ بمهارةٍ مجموعَينِ داخلَ قلبٍ محفور، هنا كان دمعُها فيضانًا حقيقيًّا بكُلِّ ما تحمله الكلمةُ من معنى وكأنَّ كُلَّ ما مضى مُجردَ إحماءٍ لغُددِها الدمعية، ظلَّت على حالِها حتى عادت إلى

المنزل مُنتَصفَ النهار، لم تذُق طعامًا ولم تنطِق بحرفٍ واحدٍ ونامَت مُبكِّرًا بعدما أنهكها الإعياء..

صوتُه الضاحِكُ أتاها من بعيد، نادته فلم يُجبْها، همَّت بتعنيفِه وتوبيخه والصراخِ في وجهه لكنه استمرَّ في ضحكاته كأن لم يسمعها، هزَّت رأسَها تُحاوِلُ نفْضَ تهيؤاتِها عن رأسها لكن صوته ظلَّ يُطارِدها حتى في يقظانِها، يتكلمُ حينًا ويضحكُ حينًا ويصمُتُ أحيانًا، زاغَت عيناها وهي تفتحهُما مُحاوِلةً استيعابَ الموقف، هل كانت تحلُم؟ عادَ صوتُه يتردد من جديد بصورةٍ أوضح هذه المرة أوضح مُخالِطًا صوتَ أخيها ياسر، ليسَ حُلمًا بكُلِّ تأكيد، اقتربت من بابِ غُرفَتِها واسترقَت السمع، أخوها يُناديها لتحضيرِ الشاي لمُحمد السيد فتردُّ أمُّه بأنها نائمة..

ماذا؟ هل هُو هو فِعلًا؟ أنصتت جيدًا إلى صوته الذي تستطيعُ تمييزَ نبراتِه من بين الآلاف، عصفَ الذُّهولُ بعقلِها، استغرابًا من عودتِه أم فرحةً بها؟ لا تدري..

ظلَّت مُلتصِقةً بالباب مُنصِتةً إلى حديثِهما حتى انصرف، بقيت طيلةَ الليلِ مُتيقظةً تُسائِلُ نفسها، ماذا يفعلُ الآن؟ هل استيقظَ من نومِه أم ما زالَ راقِدًا في فِراشه مُتأمِّلًا هاتفَه انتظارًا لاتصالِها كما تفعلُ هي الآن؟ لم تتخيل أبدًا أن يأتيَ اليومُ الذي تجهَلُ فيهِ كلَّ شيءٍ عنه وهي التي تعلمُ عنهُ أدقَّ تفاصيلِ حياته، ماذا يُحِبُّ أن يأكُل وأيُّ لونٍ يُفضِّل وأيُّ فريقٍ يُناصِر..

لملمت خُصلاتِ شَعرِها الخَشِن المُلتوي تحت رأسها، وضعَت يديها ملتصِقَتينِ تحتَ خدِّها الأيمن ونظرَت عبرَ النافذةِ إلى الشمسِ التي اعترضت طريقَها غيمةٌ ما وخبأت قليلًا من نورِها، دققت النظرَ في الغيمةِ محاولةً اختراقها أو إزاحتها عن طريقِ النور، انقبضَ قلبُها مع طُولِ فترةِ غيابِ الشمسِ وراء الغيمةِ وأنارَ عقلُها باسمٍ واحدٍ فقط، حُسام، صديقُ أخيها ياسر وصديقُ محمدٍ أيضًا والذي اتصلَ بأخيها من أجلِ خِطبَتِها بما يعني أنهُ لا يعلَمُ شيئًا عنها وعن محمد، لم تتخيلْ أبدًا في أسوأ كوابيسِها ما كتبَهُ القَدَرُ في صحيفةِ حياتها، تسامرَ محمد وأخوها حتى وقتٍ مُتأخرٍ أمس فهل أخبرَهُ أخوها

بالأمر؟ كم ستكونُ طعنةً قاتلةً تعلمُ عُنفَ وقعِها عليه لأنها تجرَّعتْها مرتينِ قبلَ ذلك، ذاقتَها يومَ أخبرها أنَّ أمَّهُ رفضت زواجَه منها، وقتها حاولت احتمالَ طعنةِ أمه لعلَّ القدر يُخبئُ لهُما تصارِيف أخرى لا يعلمانها لكنَّ الطعنةَ الأقسى كانت طعنتُه هو عندما سافرَ دون أن يودعَها أو حتى يُخبِرَها، هاتفتهُ كثيرًا فتجِدُ هاتفَه المُغلَق يُجيبُ بدلًا منهُ فيزيدُ قلقُها عليه، تحسَّست أخبارَه قدرَ الإمكانِ حتى علِمَت صدفةً بأمرِ سفره، لطالما دارت فِكرةُ السفرِ برأسه وكان يُخبرُها بذلك فيمتلئُ قلبُها رُعبًا، طلبَت منه مِرارًا ألا يُسافِر بدونِها فكان يعِدُها بأنَّه لن يتركَها أبدًا وأنَّه حينَ يعزِمُ على السفرِ ستكُونُ هي دَربَ سفرِه وهُدَى طريقِه لكن عِندما كُتِبَت قوائِمُ الرحيلِ كان أولُ المُغادرين دون وداع..

ما الذي دفعَه للرحيلِ يومَها إذن؟ لا بُدَّ أن يكونَ سببًا قويًّا جدًّا لكن هل كان أقوى من حُبِّها؟ طأطأت رأسَها وزوَت ما بين حاجبيْها وتركزَّت عيناها للحظاتٍ دونَ أن يرتدَّ إليها طرفُها، تجمَّعت كلُّ الخيوطِ والتفاصيلِ في رأسِها، أخلاقُ أبيهِ الفاسدة،

رؤيتُه لأَمه تُجاهِدُ للحفاظِ على الأسرة، عدمُ نجاحِه في العثورِ على عملٍ مُناسب وأخيرًا رَفضُ أُمِّه المُتعسِّف لزواجِه منها، ليس هناك تفسيرٌ لرحيلِه هذا سوى شيءٍ واحدٍ، الهروب، لأولِ مَرةٍ منذُ كانا صغيرينِ ترى فيه عيبًا، أهُناكَ أقسى على قلبِ المُحبِّ من أن يرى محبوبَه ضعيفًا ينحني أمامَ العاصفةِ كي لا تكسرَه فينساقُ لها خائِرَ القُوى مغلوبًا على أمره؟ تعلمُ أنَّه سيظَل محبوبها الأبدي وإن فرَّقَت بينهما الظروفُ لكنها لن تغفِرَ أبدًا له هروبَه وتخليهِ عنها..

أخرجها صوتُ هاتفِها من أفكارِها، نظرت إليهِ في تساؤل وقلبُها يرتجِف ثم زفرَت ببطءٍ فلا تعلم أكانَ زفيرُها للارتياحِ أم للأسف،غريبٌ هو قلبُها، تمنى أن يكونَ هو المُتصل ولو كان هو لتمنى ألَّا يكونَ هو، لم تُجِب على اتصالِ بسمة وأنهَت الرنينَ، ظلَّ إبهامُها يتحركُ على الهاتفِ للحظاتٍ في تردُّدٍ مرتبِكٍ كلما ظهرَ اسمُه تعودُ فتحجُبُه، دامت حيرتُها لأكثر من خمسِ دقائق حتى حسمَت أمرَها واتصلَت به، مضَت فترةٌ كالدهرِ فكرَت فيها ألفَ مرةٍ أن تُنهي الاتصالَ لكنَّ أصبعها لم

يستجب لتفكيرِها على ما يبدو حتى استفاقت من وُجُومِها على صوتِه:

- آلو، إزيك يا رحاب..

أجفَلَت وكأنها لا تتوقعُ أن صوته حقيقي فما زالت تعتقِدُ أنها تحلُم، مضَت لحظاتٌ غريبةٌ من الصمتِ استجمعت فيها قواها وبدونِ أيةِ مُقدِّماتٍ أو عِتاباتٍ سألَته:

- ياسر قالك؟..

- قالي إيه؟..

- مقالكش إن حُسام فاتحه علشان يخطبني؟..

سحقت كلماتُ جملتِها الأخيرةِ عقلَهُ كجِبالٍ من الحديدِ هبطت على ذَرةِ مِلح وتكفَّلَت ضلوعُ صدرِه بإنقاذِ الكونِ من انفجارِ قلبِه، انفجارٌ كان من المُمكنِ أن يُعيدَ تكوينَ المجراتِ وتشكيلَ الكواكِبِ من جديد، تجمَّدَت يدُه على هاتفِه مغلقًا عينيه ومُحترِقًا بلهيبِ نحيبِها، ظلَّا صامِتَينِ حتى كفكَفت دموعَها

وابتلعت ريقَها، حاولت التماسُكَ وإضفاءَ الهدوءِ على صوتِها المُتهدِّج وقالت:

- اعمل حاجة يا محمد، كلم أمك تاني، أنا ممكن أسامحك على اللي فات بس أنا مش هستحمل أعيش في بيت تاني مع حد غيرك..

نطقَت كلماتِها الأخيرة بسُرعةٍ ومرارة، خنقَها السُّعالُ الذي أفرغَ كامِلَ الهواء من رئتيها فانتظرَ حتى فرغَت من نشيجِها المتقطع ثم قالَ بصوتٍ خفيضٍ جدًّا:

- رحاب، أنا لما سافرت، سافرت علشان حاجات كتير واستحملت حاجات أكتر إلا حاجة واحدة مقدرتش عليها، إني أكلمك وأقولك إني مقدرتش أقنع أمي إننا نتجوز، هربت، هربت لأني مقدرتش أتجوزك زي ما وعدتك لأني مش هقدر أتجوزك من غير موافقة أمي، سامحيني يا رحاب، هتقولي عليا بهرب تاني قولي، بس الله وحده يعلم أنا حاولت وتعبت قد إيه..

- أنا عارفه إنك تعبت وعلشان كده أنا بردو كلمتك رغم إنك سيبتني قبل كدا وبقولك تاني أنا لسه مستنياك، حاول تعمل حاجه أبوس إيدك، صاحبك حسام جاى آخر الأسبوع..

قالتها وأنهت الاتصال، لم يَدُرْ أبدًا بذهنِها أنَّ البيتَ الذي ستكونُ سيدتَه ليس هو عين البيتِ الذي سيأوي إليهِ في نهايةِ يومٍ شاقٍّ باحثًا عن الراحةِ والطمأنينة، كم مرةٍ اختارا لهذا البيتِ لونَ الحوائطِ وشكلَ الأثاثِ وطريقةَ توزيعه، كم مرةٍ تشاجرا على أسماءِ الأطفال، كان يُمازِحُها بأنه سيُطلِق على طفليهما اسمي "عباس وزغلولة" فتحتَدُّ عليهِ في غضبٍ طفولي وتتهِمهُ بأنَّه يُريدُ لأطفالِهما أن يكونوا نُزلاءَ المصحاتِ النفسيةِ بسبب اسميهما وكم كان يستلِذُّ بهذا الغضب، رسما معًا أدق تفاصيلِ حياتِهما المُستقبليةِ دونَ وضعِ أية محاذيرٍ في الحُسبان ولم يتطرقا أبدًا للتفكيرِ في تقلُّباتِ الزمان واستمرا في أحلامِ اليقظةِ وكأنَّ زواجَهما أمرٌ حتمِي لا مناصَ منه..

4

غارِقًا في الذكرياتِ لم يتوقف عن التفكيرِ طيلةَ يومِه، استعادَ ذكرى يومَ فاتحَ أمَّه قبل سفره، رفضَت رفضًا صارمًا حينها في ردةِ فعلٍ أكبر وأقوى من المتوقع، هل كان لرفضه فكرة الزواج من ابنة خالته التي حدثته أمُّه عنها تأثيرٌ في هذا الرفض؟ أم هل أحسَّت أمُّه أنَّ رحاب طغت على تفكيره فغارت منها؟ إن كان هذا صحيحًا فهذا يعني أنَّ الأمرَ قد انتهى، رفضت أمه من قبل فحزَمَ حقائبَه ورحل فهل يتوقعُ الآن أن تستجيبَ له؟ إن كانت أمه رفضت قبلًا لأنها تغار فهي الآن صارت تكره كما أنها تُحَمِّل رحابًا وِزرَ رحيلِه حتى لو لم تُصرِّح بهذا، هل انتقلَ احتمالُ زواجِه من رحاب إلى خانةِ المُستحيل؟ لا بُدَّ من المُحاولةِ مراتٍ أخرى حتى لا يبكي بقيةَ حياتِه شاعِرًا أنه خذلَها وحتى تغفِرَ له وتستيقِنَ أنَّه لم يدَّخِر وُسعًا في سبيلِ الاقتران بها..

لم يغمِض له جفنٌ طيلةَ الليلِ، ظلَّ يتقلَّبُ على الفِراشِ كالمُتقلبِ على جمر وبدا أنَّ الوقتَ لا يمضي، قام فتوضأَ ثم أدَّى صلاةَ الفجرِ وسألَ ربَّه أن يُرقِّقَ قلبَ أمِّه، منحَته لحظاتُ شروقِ الشمسِ بصيصَ أملٍ واهيًا لكنه تشبثَ به، سمعَ صوتَ خطواتِ أمه التي دخلت المطبخ فعزَم على الحديثِ معها الآن، جسدُه المُترنح من التعبِ والسهر لا يُسعفه لكنه أجبرَه على المُضيِ قُدمًا، وقفَ على بابِ المطبخ وارتكنَ إليه بكتفِه عاقِدًا ساعديْه وقال مُبتسمًا في وُدٍّ:

- صباح الخير يا أما، صاحية بدري ليه؟..

- صباح الخير يا محمد، قلت ألحق أعمل الغدا قبل ما أمشي لأني احتمال أتأخر شوية في الشغل..

رأى أنَّ الحوارَ بينهما سيتخذُ منحى آخر غيرَ الذي أراد فسألها مباشرةً:

- قوليلي يا أما، هو فيه فرق بين إن الواحد يكون راضي وإنه يكون سعيد؟..

توقفت للحظةٍ عما تفعل، رفعت حاجبيها وأخفضتهما في سرعةٍ ثم أجابت:

- لا مفيش فرق بينهم، هما الاتنين حاجة واحدة، الإنسان لما بيرضى بيبقى سعيد..

- أيوه يا أما بس الرضا مش معناه أنه يستسلم لحاجة حصلت هو ممكن يغيرها وحاسس إن السعادة في غيرها..

فهِمَت مقصِدَه فاكْتَسَى صوتُها بالحزمِ أكثر وهي تقول:

- لا، هما الاتنين حاجة واحدة، إنت عايز إيه بالضبط؟..

صمت قليلًا وأحنى رأسَه ثم رفعَها ونظرَ إليها نظرةَ استعطاف:

- أما، إنتي مش عايزاني أعيش سعيد بقية حياتي؟..

ألقَت المِلعقةَ من يدِها بعُنفٍ واتسعت عيناها بشدةٍ وصرخت في وجهه:

- هو مش الموضوع ده قفلناه قبل ما تسافر وخلصنا؟ بتفتحه ليه تاني؟..

خفضَ صوتَه لأقصى حدٍّ حتى يتفادى الصدام:

- يا أما بالراحة بس، يا أما أنا مش عايز أعيش عيشة زي عيشتك إنتي وأبويا، يا أما أنا عايز أعيش مع حد أعرفه ويعرفني وأكون أنا وهي واحد، مش عيشة والسلام..

- أنا قلت متفتحش الموضوع ده تاني، أنا مش عايزاها..

بدأت عيناهُ تدمعان وهو يقول:

- بس أنا عايزها يا أما، أنا اللي هعيش معاها مش إنتي..

نظرت إليه في غَيظٍ وقالت في قسوةٍ قصَمت قلبَه:

-أنا حلفت بالله لحد آخر يوم في عمري ما هتتجوزها، لما أموت إبقى روح اتجوزها، وللا روح اتجوزها لوحدك بس ساعتها لا إنت ابني ولا أعرفك..

- يا أما حرام عليكي، إنتي بتعملي فيا كده ليه؟ دانا ابنك يا أما..

- ابني يقولي حاضر ويسكت، إنت عايز توجع قلبي وتموتني؟..

همَّت بمغادرةِ المطبخ فانكَبَّ على قدميْها مُحاوِلًا تقبيلَهما ثم قالَ ولعابُه يخنِقُ صوتَه:

- يا أما أبوس رجلك، دانتي حتى رافضه من غير سبب، يا أما إنتي عايزة تكسري قلبي طول حياتي؟..

نزعَت قدميْها من بين يديهِ بقسوةٍ ثم صفعَتهُ على خدِّه الأيسر وصرخت كمن يرى شيطانًا أمامه:

- أنا قلت لا وانتهى الموضوع..

دخلت غرفتَها وصفقَت البابَ خلفَها بقوة ،ظلَّ جامِدًا إثْرَ صفعتِها، استندَ بظهرِه إلى الجدارِ مُغلِقًا عينيه وانهمرت دموعُه وأغرَقَت ملابسَه، لا يُصدِّقُ قسوتَها ولا سُخريتَها

اللتينِ لم يعتدْهما من قبل ولا يُصدِّقُ أنها أنفذَت قرارَها ضد رغبةِ ابنِها وحالت بينه وبين أكثر مخلوقةٍ أحبها على وجهِ الأرض، "آآآآآآآه يا رحاب "جاءَت من أعمقِ أعماقِ قلبِه، من جميعِ خلايا جسدِه ومن كُلِّ ذراتِ عِظامِه، تحولَت أوردتُه وشرايينُه إلى مشانِق لخلاياه العصبيةِ والحسيةِ فأطلقَت آهاتٍ حملَت كلَّ القهرِ والبؤسِ والألم، تراءت له رحاب في خيالِه تبكي، اقتربَ منها وحاولَ مسحَ دموعها فابتعدت عنه وأدارت له ظهرها، تسارعت أنفاسُه وارتفعَ صدرُه وانخفض، أحسَّ بسخونةٍ غريبةٍ في جسدِه وشعرَ بحباتِ العرقِ تسري على جلدِه المُلتهِب داخل ملابسه، نهضَ من مكانِه فتحركَ الهواءُ حولَه واستشرتَ برودتُه المفاجئةُ في جسدِه فأصابته برعشةٍ قويةٍ كمُصابٍ بالحُمَّى، حالتُه يُرثى لها كمن جردُوهُ من ملابسِه في زمهريرِ إحدى ليالي الشتاءِ العاصِفة ثم ألقوا به في عرضِ البحر، هزَّ رأسَهُ في استكانةٍ مريرة، استكانةِ المقهورِ المغلوبِ على أمرِه، رَفضُ أمِّه من ناحيةٍ وحبُّه لرحاب يُلهبانِه بسِياطٍ من نارٍ بلا رحمة كمصلُوبٍ في ساحةٍ رومانية تبارى

فريقانِ على خلعِ ذراعيه من الجانبين ومُنتظِرٍ الأسدَ الجائعَ كي ينهشَ لحمَه ويُريحَه من آلامِه، أحسَّ بأقسى شعورٍ يُمكِن أن يشعرَ به إنسان، شعور العجز، تمنَّى لو كانت روحُه في جسدٍ آخر غيرَ جسده، تحيا في زمانٍ آخر فى بلدٍ آخر فى كوكبٍ آخر، نهضَ من مكانِه في وَهَنٍ شديدٍ بعدَ تِسعِ ساعاتٍ كاملة وقامَ بتغييرِ ملابسه ثم خرجَ من بيتِه هائِمًا على وجهِه تُغالِبُه دموعُه فيقمعُها حتى لا تنتقصَ رجولتَه أمام السائرين، قادتهُ قدماه إلى مكانِ تجمُّعِ السيارات فاستقل إحداها بعفويةٍ دون تفكير وعندما هبطَ منها كان قد حدَّدَ وِجهَتَه، استقل القطارَ بلا شعورٍ حتى وصلَ القريةَ المرجوة..

عرباتٌ تجرُّها الحميرُ مُحملةً بالبرسيمِ استلقَى فوقَها رِجالٌ بملابسِهم الداخلية أقربُ للموتِ منهم للحياة وتصرُخُ عضلاتُ أجسادِهم طلبًا للراحة، نساءٌ يَحمِلنَ فوق رؤوسِهنَّ أوعيةَ طعامٍ فارغةً أو حصيلةً صغيرةً من الخضراواتِ الطازجة، أطفالٌ حُفاةٌ في الشوارعِ يلعبونَ بأقصى طاقتِهم تكونَّت قشرةٌ سميكةٌ من الجلدِ أسفلَ باطنِ أقدامِهم تقيهم وخزَاتِ الحصى، تياراتٌ

خفيفة من الهواء تحمِلُ معها دُخانَ حرائِق القش ورائحةَ روثِ البهائم..

كُلُّ هذا لم يره أو يشعُرْ به فقط أحسَّ بالرهبةِ المُعتادةِ كلما وطأَ غريبٌ أرضَ بلدةٍ غريبةٍ عليهِ، زاغَت عيناهُ بينَ البيوتِ والطُرقاتِ المُتفرعةِ لا يدري أيها يسلُك، أمام مدخلِ أحدِ البيوت جلسَ شيخان على فِراشٍ من الحصيرِ يتسامران، سألهما عن المنزلِ المنشود فأجاباهُ أنَّه يقعُ في آخرِ المُنعطفِ التالي..

تأملَ البيوتَ المُضيئةَ المُصطفةَ على جانبي الطريق، كانت كلها تنبضُ بالحياة، أصواتُ أجهزةِ التلفاز المُرتفعة وصراخُ الأطفالِ وقهقهاتُ الرجالِ وثرثراتُ النساءِ وأضواءُ الشرفات لم تُذهِب عنه شعورَه بالوحشة، على اليمينِ من نهايةِ المُنعطَف قبعَ بيتٌ من الطوبِ اللَبِن بين البيوتِ الضخمة المُحيطةِ به مُستكينًا كحملٍ وديعٍ بين وحُوشٍ جائرة، ليسَ هُناك دليلٌ قاطعٌ على أنَّ هذا المنزل بهِ أنفاسٌ تترد وإلا كانت بعضٌ منها

نفضَت أكوامَ التُّرابِ التي غلَّفَت بابَه ونوافذَه، تضاعفَ شعورُه بالوحشة أكثر لكنه تقدَّمَ من البابِ وطرقَه عِدةَ طرقاتٍ سريعة، لحظاتٌ مرَّت ولم ينفتح الباب بعد فشعرَ أنَّ مجهودَه في الوصولِ إلى هنا قد ضاعَ سُدَى، سمِعَ حفيفَ خطواتٍ من خلفِ الباب فانتظر حتى فُتحِ ببُطءٍ شديدٍ ورأى بعدَهُ ضوءًا خافِتًا يهربُ إلى الشارع، لم يتبين ملامِحَ المرأةِ العجوزِ التي انحنى ظهرُها كثيرًا بفعلِ السنواتِ التي تراكمت عليه، لم تتعرفْ عليهِ مع النظارةِ السميكةِ جدًّا التي ترتديها، سألته عمَّن يكونُ فأخبرَها أنَّه محمد أبو السيد تلميذُ الشيخِ وأنه أتى لزيارتِه من البلدةِ التي سكنوها قبلَ سنوات، ذهبَت المرأةُ لتُخبِرَ زوجَها فيما وقفَ هو على البابِ انتظارًا لإذنِ الدخول، أمامه لوحةٌ خشبيةٌ معلقَةٌ نُقِشَت عليها آيةُ الكُرسيِّ بمَهارةٍ فائقة، أغمضَ عينيه وبدأ يتلوها من ذاكرتِه حتى سمِعَ صوتَ المرأةِ تُناديه ليدخل، خفقَ قلبُهُ بكلِّ قوةٍ عندما رأى شيخَه نائِمًا على ظهرِه فوقَ سريرِهِ وعلى جسدِهِ غطاءٌ ثقيلٌ يذُبُّ عنه برودةَ الليل، كم افتقد هذا الوجهَ الحاني والتي ازدادت شعراتُ

لحيتِه شيبًا عن ذي قبل، ارتدى نظارةً شمسِيةً لا تَليقُ أبدًا بالوقتِ ولا بالظلامِ المحيط، ألقى السلامَ على شيخِه ثم مدَّ يدَه ليُصافحَه لكنَّ الشيخَ على ما يبدو لم يفطنْ إلى اليدِ الممدودَةِ إليه، هنا أدركَ محمد الموقفَ، لقد كُفَّ بصرُ شيخِه، دمعَت عيناهُ وانكبَّ على يدي شيخه وقبَّلَهُما، ابتسمَ الشيخُ وربَّت على رأسِ مُحمد في حُنوٍّ ثم أشارَ إليه بالجلوسِ على الكرسي المُجاورِ للسريرِ وقال:

- ياه يا ولد يا محمد، أخيرًا افتكرت شيخك..

- أنا عمري ما نسيتك يا شيخنا وكلنا في البلد فاكرينك وبنجيب في سيرتك على طول بالخير..

- بتجيبوا في سيرتي؟، وأنا أقول طول اليوم عمال أكُح ليه؟ - يضحك ثم يسعل بقوة – يا ابني بطلوا تيجبوا في سيرتي أنا كنت خلاص افتكرت إني جالي السُّل..

ابتسم مُحمد لدُعابةِ شيخه وقال:

- بعد الشر عليك يا شيخنا، ربنا يحفظك ويطولنا في عمرك..

سعلَ الشيخُ عدةَ مراتٍ وتفَلَ في منديلِه ثم وضعَ يدَه على صدرِه حتى استكان وقالَ في صوتٍ مُتحشرِج:

- قول يا سيدي..

- أقول إيه يا شيخنا؟..

يعلمُ جيدًا مدى فِطنَة شيخه الذي طلبَ من زوجتِه إعدادَ الشاي ربما لإبعادِها عن الغرفةِ حتى لا يجِد مُحمد حرجًا في الحديثِ أمامها، مرَّت فترةٌ من الصمتِ استجمَعَ خلالَها شتاتَ نفسه ثم قصَّ على شيخِه كُل ما جرى معه منذ أن انتهى من الدراسةِ حتى الآن وما كان من أُمه وعلاقتِه برحاب، لم يقاطعْه الشيخُ إلا لاستيضاحِ بعض الأمور ومُحمد يجيبُه بدون أدنى خجلٍ أو مواربة حتى فرغَ من حديثِه، أخذَ الشيخُ يُفكِّرُ بعمقٍ لفترةٍ قصيرةٍ ثم قالَ في صوتٍ رزين:

- كل اللي حصل ده هو القدر وإحنا لازم نرضى بالقدر يا محمد ولو كانت نصيبك اللي مكتوبلك من فوق سبع سماوات كانت أمك وافقت..

- بس يا شيخنا دي مقالتش حتى سبب، رافضه كده وخلاص، أروح أنا أسكت وأقول دا القدر والمكتوب؟ ما هي لو كانت وافقت كان هيبقى قدر ومكتوب..

- إنت طول عمرك بترضى يا محمد؟..

- آه يا شيخنا ولله الحمد، عمري ما سخطت ودايمًا أي حاجة خير بتحصلي بحمد ربنا عليها ولو حاجة شر حصلتلي بكون عارف إن نفسي هي السبب أو الشيطان، مثلا لما دخلت كلية عادية وملحقتش الكلية الكبيرة اللي كنت عايزها قلت الحمد لله لأني ماستاهلش أدخلها علشان ما اجتهدتش..

- إنت فاكر إن ده الرضا؟ اللي إنت قلته ده تسبيب الرضا مش الرضا نفسه، للأسف غالبية الناس اللي حاسين إنهم راضيين بقدر الله وقضائه غلطانين -إلا من رحمَ ربي - كل اللي

بيعملوه إنهم بيدوروا على سبب لأي حاجة حصلت وبعدها بيقولوا الحمد لله مع إن المفروض ميدوروش على سبب من الأساس..

- مش فاهم يا شيخنا..

- يعني الناس أربعة أصناف، فيه ناس مبترضاش وبتسخط ودول حاشا لله ظالمين لنفسهم وفيه ناس بترضى علشان مُجبرين على كده ومقدامهمش يعملوا أى حاجة، ده مش رضا بس علشان هما عاجزين إنهم يعملوا حاجة فبيسكتوا، وفيه ناس اللي بيقولوا إنهم بيرضوا، بيدوروا على سبب يريحهم للرضا عن القدر، مثلا لو حد جاله دور برد، بيقعد يدور على سبب البرد ده، يقولك أنا نمت بهدوم خفيفه أو فيه حد كان عنده برد وأنا أخدته منه ولما يوصل لكده يقول الحمد لله، ده اسمه تسبيب الرضا وده ملوش علاقة بالرضا، أما الرضا بقى بجد إنك تعمل اللي عليك وتتعب وتجتهد وتاخد بالأسباب وبعدين اللي يحصل ترضى بيه سواء كان على هواك أو على

عكس هواك ودي منزِلة كبيرة جدًّا وقليل من الناس اللي بيوصلها، ستنا هاجر لما أبونا إبراهيم سابها هي وابنها الرضيع في الصحرا الواسعة يدوبك معاهم زاد يكفيهم أسبوع واحد بس، سألته إنت سايبنا هنا ليه؟ قالها ربنا أمرني بكده، مسألتش عن السبب ومفكرتش، قالت: "إذن لن يُضيعنا"، عارف ليه علشان راضية بقدر ربنا وعارفه حكمته، مقالتش خلاص طالما ربنا اللي جابنا هنا نستنى لحد ما يبعتلنا الزاد؟ لا، خدت بالأسباب وطلعت الجبل ونزلت وراحت وجت بين الجبلين سبع مرات لحد ما تعبت وهنا ربنا إدالها أكتر من اللي تحلم بيه علشان هي رضيت من غير سؤال، خلفت سيدنا إسماعيل أبو العرب وكلنا بنحكي عنها لحد دلوقتي، لكن لو مكانتش رضيت كانت اتجننت وسخطت والعياذ بالله، فهمت يا محمد؟..

أطرَقَ محمد رأسَه مُفكِّرًا في حديثِ شيخِه ثم سأل:

- يعني يا شيخنا تقصد إن رفض أمي ده هو تنفيذ المكتوب عند ربنا مش سبب في حد ذاته؟..

- أيوه يا ابني، لازم قلبك يرتاح وتعرف إن ده مكتوب ربنا اللي لازم ترضى بيه، أنا عارف أنه صعب عليك وإن قلبك مش بإيدك بس صدقني لو رضيت بيه من غير ما تدورله على سبب هيديلك من حيث لا تدري ولا تعلم ويمكن أحسن من اللي إنت كنت عايزه بس إنت ترضى..

بكى محمد وأطلقَ لدموعِه العِنانَ فتركَهُ الشيخُ يغسِلُ همومَه في تفَهُّم ثم نادى زوجتَه وطلبَ منها أن تُعِدَّ الغرفةَ المجاوِرةَ لمحمد حتى يتسنى له المبيت معهم، كان مُتأكِدًا أنَّ محمدًا لن يُوافِق على ذلك فأرادَ أن يُخرِجَه من حالتِه تلك حتى يستطيعَ اللحاقَ بآخرِ قطار، الوسيلة الوحيدة للعودة فالوقتُ أصبحَ متأخرًا جدًّا، أدركَ مُحمد ذلك أيضًا فنهضَ من مكانه مُقَبِّلًا يدَ ورأسَ شيخِه شاكِرًا إياه ثم انطلقَ أهدأَ بالًا من ذي قبل..

وقفَ على رصيفِ المحطةِ مُنتظِرًا القطار والرؤيةُ معدومةٌ تقريبًا، فقط مِصباحٌ أصفر ضعيف في نهايةِ الرصيفِ يحتضِرُ ضَوؤه، تجمَّعَت حولَه بعضُ الحشراتِ الطائرةِ لِتستمِدَّ الدِفءَ منه، على مقرُبةٍ منه وقفَ عِدةُ أشخاصٍ ينتظرون مثله، كانوا مثل الأشباحِ الرماديةِ وصوتُ خطواتِهم على الرصيفِ البارِدِ يقذِفُ الرهبةَ في قلبه كلما اقتربوا منه، من بعيدٍ أبصرَ ضوءَ مُقدِّمَةِ القطار، مزَّقَ صوتُ صفارتِه سكونَ الليل وأيقَظَ بها تلكَ البيوتِ المُصطَفةِ على الجانبينِ من سُباتِها العميق، لا يُريدها أن تهنأَ بالنومِ فيما هو ما زال يعمل حامِلًا أولئك الذينَ يجوبون البلاد، صرخَت صافرتُه ثانيةً لكن هذه المرة في وجوهِ المُسافرين ولِسانُ حالِها يسألُهم: أليست لكم بيوتٌ تؤويكم في هذا الوقت المتأخر؟ لم يبدُ أنَّ المسافرينَ اهتموا بهذا التعنيفِ بل على العكسِ ازدادوا اهتمامًا به، نفثَ القِطارُ غضبَه عبرَ مدخنتِهِ العُلوية الشهيرة ثم توقفَ في استسلام بعدما ضاعَ تعنيفُهُ سُدى، استقلوهُ في سُرعةٍ خِشيةَ أن ينتفضَ بغتةً ويتحركَ ويترُكَهم خلفه..

جلس محمد إلى جوارِ النافذة عكسَ اتجاه حركةِ القطار كعادته، كُلُّ شيءٍ يتحرك حوله، نتفُ الغَمامِ في السماءِ والرياحُ والأشجارُ وأعِمدةُ الإنارةِ وأسلاكُ التلِغراف، الشيء الوحيدُ الثابتُ كان القمر الذي بدا كأَنَّهُ مركزُ الكونِ والنجومُ تدُورُ في فُلكِه، شرَدَ بذهنِه مُفكرًا في كلامِ شيخه، تبدَّت لهُ أشياءٌ كان من الصعبِ على عقلِه أن يصِلَ إليها إلا بعدَ سنواتٍ من التجربةِ والخبرة، تأمَّل وجوهَ الأشخاصِ حولَه ثم أمالَ رأسَه إلى الخلفِ وأغمضَ عينيه، التقى حاجباهُ وارتسمت بينهُما أماراتُ التفكير، الحياةُ مثل هذا القطار، كُلُّ سَنةٍ منها كمحطةٍ من المحطاتِ العديدةِ التي تنتشِرُ في طولِ البلاد وعرضِها، أُناسٌ يستقِلونَ القطارَ ويغادرونَه دون أن نعرِفَهُم وأُناسٌ يستقِلونه ويجلِسونَ إلى جوارِنا لكننا لا نشعُرُ بما يدورُ داخلَهم، ومنهم من نتعرفُ إليهِم ونُحادِثُهم، قد نألفهم حتى نظُنُّ أنهم باقونَ معنا حتى نهايةِ الحياة لكن عندما يصِلُ القطارُ إلى حيث وِجهتهم يرحلون حاملِينَ معهم قلوبَنا وأحلامَنا ومُخلِّفينَ معنا الذكريات مُفرِحها ومُوجعِها، وهناك من فرضَتهُم علينا

وِجهةُ السفرِ المُشتركة لا يُريدون إلا منافِعَهم الشخصية، تمامًا كهؤلاءِ الباعةِ الجائلينَ الذي يمتزِجُ صوتُهم بصوتِ عجلاتِ القطار فيصنعُ ضجيجًا اعتادَهُ كلُّ المُسافرينَ بالقطار، يتغزَّلُونَ في بِضاعتِهم رُغمَ رداءةِ جودَتِها إغواء للمسافرين وهُم - مع تغزُّلِهم هذا - أحرصُ ما يكونونَ على بيعِها لِقاءَ قرُوشٍ قليلةٍ قد تُطعِمُ فمًا جائِعًا ينتظِرُ هناك في غياهِبِ الفقرِ المُدقِعِ أو تقضي ديْنًا يُطَوِّقُ عُنقًا اعتادَ على قسوةِ الحياةِ أو تشتري عُلبةَ تبغٍ تُنفِّثُ بدُخانِها الأبيض بعضًا مما خلَّفتهُ تقلُّباتُ الأيام، يا لَحظِ هذا القطار، يجوبُ البلادَ مُندفِعًا لا يجرؤُ على اعتراضِهِ أحد، طريقُهُ محَدَّدٌ وواضح لا يسيرُ فيه غيرُه، يخترِقُ الحُقولَ الخضراء ويمُرُّ فوقَ الأنهارِ الصغيرة، تُغلَقُ الطُرقُ لأجلِه ويضبِطُ الناسُ مواعيدَهم على توقيتِه ويُهلِّلُ الأطفالُ لرؤيتِه، كتلةٌ ضخمةٌ من الحديدِ الأصمِ تتغذى على الفحمِ أو الوقودِ السائلِ بلا قلبٍ يُعذبُه، لا يهتمُّ لهؤلاءِ الذين حزَموا أمتِعتَهم عزمًا على الرحيلِ يُمزِّقُهم الحنينُ لأوطانِهم وأهليهِم وأحبتِهم ولا يُعيرُ اهتمامًا لكُلِّ هذهِ الأحضانِ المُلتاعةِ على جانِبيهِ ولا

تُؤثّرُ فيه تلك العبراتُ التي تُذرَفُ في أوقاتِ الوداع، يحملُهم بلا أدنى شعورٍ منه إلى أوطانٍ أخرى أو ربما إلى أحضانٍ جديدة..

الفصلُ السادس

باتت الذِّكرياتُ السعيدةُ تُوجِعُنا أكثر من الذكريات الحزينة

1

امتزجت دموعُها بكُحلِ عينيْها فرسمَت خطَّينِ أسودَينِ على بشرتها القمحية وتسللت مرارةُ الدموعِ إلى فمِها بطريقةٍ ما وامتزجت بريقِها حتى بلغَت قلبها، طوَّقت رُكبتيها بيديها ودفنت وجهها بينهُما جالسةً على الأرضِ بجوارِ سريرها، لنصفِ الساعةِ أو أكثر فقدت اتصالها بما حولها من مكانٍ وزمان، ألهبت دقاتُ الجرسِ في الخارج قلبَها بسياطٍ من لهب فانتفضَ مُحاوِلًا الهرب فحاولَ صدرُها قمعَ الثورةِ التي اندلعت داخله بكلِّ قسوةٍ، طرقاتُ يدِ أمِّها على البابِ أخبرتها أنَّ ما تخشاه قد وقع، أتاها راجيًا ألا ترُده خائبًا وهو لا يعلم أن قلبَها مُعلَّقٌ بصديقِه، أمسكت مِنديلها ومسحَت أنهارَ دموعِها، أعادت تثبيتَ الكُحلِ ناظِرةً إلى وجهها الذابل في المرآة، محا الزمانُ معالِمَ الطفولةِ منه وحفَرَ بدلًا منها أخاديدَ الألم، دوامةٌ من التِّيهِ سحقت عقلها، فتَّشت في ذاكرتِها عن الأسماء والوجوه والألوان، عن ضحكاتها وأيامها وأحلامِها، لكن لا شيء، لا شيء أبدًا، عادت طرقاتُ أمها تستحثها للخروج،

حاولت المسيرَ لكن قدميها لم تستجيبا لها، نظرت إليهما في ذهولٍ وكأنما قيَّدَتهما أغلالٌ خفيةٌ سيطرت عليهما تمامًا فمنعتها من التحرك، دخلت أمُّها الغرفةَ فسقطَ الجِدارُ الرمادي الذي أحاطَ بعقلها وأعادها إلى الحياةِ الواقعيةِ من جديد، سارت خلفَ أمها في تثاقُلِ السائِر على الرمال وكانا هما ينتظِرانِها، أخوها وحُسام..

تحدثَ إليها بعدما صارا مُنفِردَينِ تحت نَظرَيْ أمها وأخيها وهي صامتةٌ لا ترفعُ عينيها إليه، تحدث عن نفسه وعن المُستقبل وما ينوي فِعله وهي لا تُدرِكُ شيئًا مما يقول على الإطلاق، في عالمٍ آخرٍ من أفكارها سألت نفسها، هل حقًّا أتى آخرٌ غيره ليخطبها؟ لا بُد أنه كابوسٌ مخيفٌ فمتى عساهُ ينتهي؟ أخذت نفسًا عميقًا وحسام مسترسِلٌ في حديثه، شيء ما استفزَّ عقلها وجعلها تنظُرُ إليه عاقدةً حاجبيها فتوقفَ عن الكلامِ فجأة، سألها ما إذا كانت تُريدُ أن تستفسرَ عن شيء ما لكنها لم تُجِبْه، بدونِ استئذان وبلا أيِّ حرفٍ نهضت واندفعت إلى غرفتها بسرعة، تعجَّبت الأم وغضِبَ ياسر من فعلةِ أخته

المفاجئة فيما سيطرت الحيرةُ على حُسام وعاد يسترجِعُ بينه وبين نفسِه كلماتِه الأخيرة باحثًا عمَّا يكونُ قد أغضبها، عادت بسرعةٍ لتقطعَ عليهم حيرتَهم حاملةً قارورةَ العِطرِ الصغيرة وأشارت بها إليه فنقلَ بصرَه بينها وبين رحاب في دهشةٍ عارمة، استفسَر ياسر عن القارورةِ وعلاقتِها بصديقه فأخبره حسام بواقِعةِ إغماءِ الفتاةِ في الطريق والتي لم يعرِف أنها رحاب إلا الآن، وافقَتهُ بإيماءاتِ رأسِها وهي تتشَمَّمُ رائحةَ العِطرِ من جديد..

2

باتت ليلتها في الجحيم، للمرةِ الثانيةِ أخبرَها أنه لم يُفلِح في إقناعِ أمه، لو ذبحها بيديه لكان أهونَ عليها مما هي فيه، احترقت روحُها داخلها وأصبحت رمادًا خَنقَ قلبَها المُثخَنَ بالوجع، احتضنتها بسمة قائلةً:

- حرام عليكي نفسك يا بنتي، انسي بقى وفكري في اللي جاي..

أجابت مختنقةً بلُعابِها:

- مش هقدر يا بسمة، مش هقدر أنساه، دا حبي الأول والأخير، أنا اتولدت وكبرت وعشت معاه، دا هو الحياة كلها..

- مفيش حاجة اسمها مش هتقدري تنسيه، إنتي اللي بتصعبيها على نفسك، كلمة مش هقدر أنساه دي هي اللي هتخليكي مش هتقدري، لو قلتي هنساه علشاني وعلشان نفسي هتقدري..

- هو النسيان بالسهولة دي؟..

- لا طبعًا النسيان مش بالسهولة دي، بس فكري في اللي يساعدك عليه، فكري في إنه سابك وسافر قبل كدا من غير ما يقولك وقبل كل دا فكري إن دا أمر ربنا..

- وكمان مقدرش يقف قدام أمه عشاني..

- عايزاني أقولك زي ما أي بنت بتقول لصاحبتها إنه المفروض يحارب الكون كله عشانك بما فيهم أمه؟ كل دا كلام أفلام وروايات بيضحكوا بيه على بعض، بس أنا مش هخالف ضميري أبدًا، محدش بيتجوز واحدة غصب عن أمه لأن رضاها متقدم على رضا اللي هيتجوزها، لو شايفه إنه عمل اللي عليه معاها ومرضيتش يبقى هو خد بالأسباب ودا نصيبكم فترضي باللي ربنا كتبه، لكن لو مكانش عمل اللي عليه وبيقول كدا وخلاص يبقى ربنا هيحاسبه وساعتها هتكوني إنتي الكسبانة، المهم دلوقت تفكري في اللي جاي، وبعدين عُمر الحياة ما وقفت على حد، نفضل في وقت الوجع

نقول مش هنقدر بس لما الأيام تعدي بنتأكد فعلا إنها مبتقفش على حد، المهم الصبر في وقت الوجع..

- أعمل إيه يعني يا بسمة؟..

- فكري في حسام لأنه هو الأحق دلوقت بالتفكير، الراجل جه ودخل البيت ومستني ردك عليه فشوفي هل يستحق وللا لا؟ وكمان اعتبريها رسالة ليكي يوم ما كنا ماشيين سوا في المنصورة وأغمى عليكي وإزازة الريحة بتاعته هي اللي فوقتك، مش يمكن دي رسالة علشان تنسي اللي فات مهما كان كبير وتبصي لقدام؟..

3

"بقولك إيه يا محمد، خطوبتي على رحاب أخت ياسر يوم السبت اللي جاي إن شاء الله عندهم في البيت، حبيت أقولك قبل ياسر ما يقولك، إياك تتأخر"، هبطَت الكلِماتُ على رأسِه عبرَ الهاتف كصاعقةٍ من السماء اختارته هو بالذات لتضرِبَهُ نيابةً عن كلِّ سُكانِ الكوكب، مادَت الأرضُ به وارتفعَ صوتُ دقاتِ قلبه فوضعَ يده اليُمنى على صدرِه وكأنما يكتُمُ الصوتَ مخافةَ أن يسمعه حُسام، سعلَ سُعالًا مُفتَعلًا مُحاوِلًا استعادة هدوئه وقال:

- مبروك يا صاحبي، ألف مبروك، هكون موجود إن شاء الله..

تسارعت خطواته في الظلامِ الدامس بين البيوتِ الرابضةِ في أماكنها كالقبورِ هربًا من الكلماتِ التي تُلاحقه، أصبحت الدُّنيا حوله فضاء رهيبًا لا حدودَ له واستطالَ الطريقُ أكثر وأكثر حتى بدا أن لا نهايةَ له وصارَ البيتُ أبعدَ مكانٍ في الكون،

اختفى القمرُ خلفَ سحابةٍ ما وضَنَّ عليه ببصيصٍ من الرحمة، توقفَ الزمنُ في الوقت الذي وصل فيه إلى البيت، دفع البابَ بقوةٍ فأطلقَ صريرَه احتجاجًا على الطريقةِ التي دُفِعَ بها، في غُرفته ارتكن إلى الجدارِ بظهره ثم انزلقَ لأسفل، وضع وجهه بين كفيهِ وبكى، أطلق سراحَ أوجاعه فانهمرت عبراتُه والكلِماتُ ما زالت تَطِنُّ في رأسِه، لم يتصور يومًا حتى في قمَّةِ الخِصامِ بينهما أن تكونَ لغيره، ولمن؟ لحُسام صديقه؟! عندما رفضت أمه رفضها الصارم في المرتين كانت ذُؤابةُ الأملِ باقيةً في قلبِه تُقاوِمُ عواصِفَ الزمن، لكن الآن صارَ المُستحيلُ واقعًا وبأقسى صورةٍ مُمكنة..

آهٍ يا رحاب، هل سيأخذ حُسام مكاني في قلبِك؟ هل ستُحادثينَه طيلةَ الليل كما كنتِ تُحادثينني وهل ستشتاقين إليه كشوقِكِ إليَّ؟ هل ستُهاتفينه صباحًا عند خروجك إلى الجامعةِ وهل ستعتادينَ قلقَه عندما تتأخرين في العودة منها؟ آهٍ يا رحاب..

زفراتٌ حارة مزَّقت نياطَ قلبه، ثنى رُكبتيه ووضع وجهه بينهما ثم أحاطهم بساعِدَيه وأغمضَ عينيه، تذكر كلَّ الكلماتِ التي يُحِبُّ أن يسمعَها بصوتِها الحاني وهي تُعيدُها عليه مِرارًا دونَ أن يَملَّ تكرارَها، تذكر عندما كانت تفعلُ شيئًا يُغضِبهُ بعفويةٍ وبدون قصدٍ منها فينفَعِلُ عليها ثم يُنهي الاتصالَ فجأة فتعود للاتصال به بعدما هدأت ثورتُه وتعتذِرُ كثيرًا، تحتمِلُ عصبيتَه وتحتويها حتى تتغيرَ حالتُه المِزاجية، وربما أغلقَ هاتفه حتى الصباح وهو يعلمُ أنها تُحاول الاتصالَ وعندما يَحل الصباحُ تُهاتِفه وكأنَّه لم يوبخها وهي التي باتت ليلتَها في حزنٍ وكمد، قسا عليها كثيرًا لكنه في نفسِ الوقت عشِقها أكثر مما يتخيله أيُّ عاقلٍ أو مجنون، كلُّ نعيمِ الحياة لا يُساوي لديه شيئًا عندما يسمَعُ صوتَها المبحوح عند استيقاظِها من النوم وهي تقول "صباح الخير" فتَمَسُّ كلماتُها شِغَافَ قلبه، تسأله "هو أنا حبيبتك؟" فيجيبها "لا"، تصمُت لأن جوابَه جاءَ صادِمًا على عكسِ المُتوَقع، يترُكها قليلًا في حيرتِها وهو يبتسِمُ في نفسِه ثم يعودُ فيقول "إنتي مش حبيبتي بس، إنتي بنتي اللي كبرت قدام

عينيا يوم بعد يوم"، كان فعلًا يعتبرُها طفلته، يألَمُ إذا أصابها الزُّكام، يَوَدُّ لو أحاطها بجسدِه فيمنحها الدفءَ الذي تحتاجه ويُعنِّفُها عندما لا تستطيعُ ابتلاع أقراص الدواء، يطمَئِنُّ عند عودتها من الجامعة وهل قامت باستذكار المُحاضرات أم لا؟ كان آخرَ من يُحدثها قبل أداءِ الاختبار وأولَ من يطمئِنُ عليها بعد انتهائه، كانت ترفُضُ أن يأتيها أحدٌ غيره بنتيجةِ الاختبارات، أرادت أن يُشاركَها أفضل اللحظات المُمكنة، ماضيها بأكملِه كان له أما حاضِرها ومُستقبلها فيبدو أنَّ القدرُ كتبَهُما لرجُلٍ غيره..

4

خُطواتُه مُرتعِشةٌ وكأنَّ الأرضَ التي يسيرُ عليها أصبحت رخوةً لسببٍ ما، ساقتهُ قدماهُ إلى بيتِها كما يُسَاقُ المُذنِبُ إلى حجرةِ الإعدام، تدَلَّت من فوقِ المنزلِ أضواءٌ مُختلفةُ الألوانِ، صفراء وبرتقالية وحمراء، ربما استمدَّت ألوانَها من النارِ التي تستعِرُ في صدرِه، ارتجَّت جنباتُ البيتِ بالأغاني الصادِحة وتبارَت النساءُ داخله في إطلاقِ أطول زغرودةٍ ممكنة وكأنها صارت مُسابقةً للزغاريد كُلُّ واحدَةٍ منها تشُقُّ قلبَه ككلابيب من حديد، وجوه المدعوين تبتسِمُ في وجهِهِ تُهنِّئُهُ بخِطبةِ صديقه داعيةً له بقُربِ عثوره على ابنةِ الحلال، هذه الوجوه كانت يجب أن تُهنئَه هو لا أن تهنئَ صديقه، يبتسِمُ لهم ودمعتاه تُوشِكَانِ على التكون، تداعت أمام عينيه صُورةُ وجهِها في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ رآها فيه ومرَّت أمامَ عقلِه كل لحظاتِه معها، استرجَعَت أُذناهُ كل همساتِها وضحكاتِها وبكائِها وحتى صمتِها، ضاقَ صدرُه وتحولت ضلوعُه إلى قفصٍ حديدي أخذَ ينكَمِشُ شيئًا فشيئًا حتى أوشكَت أن تعتَصِرَ قلبَهُ الذي تلوى

كعصفُورٍ مذبوحٍ، تطلَّعَ في الوجوهِ من حوله، تمنَّى أن يضحكَ أحدُهُم في سُخريةٍ مُشيرًا إليه ويخبرَه بأنَّ ما يحدث مجرَّد كابُوسٍ بغيضٍ فينتفِضُ مُستيقظًا من نومه لكن ذلك لم يحدث، إنه واقِعٌ من الجحيمِ إذن..

دَوى صوتُ مُنبِّهَاتِ السيارات وصنعَ ضَجِيجًا صاخِبًا حتى توقفت سيارتُهما أمام المنزلِ تمامًا، هبطَ حُسام من بابها الخلفي مُرتديًا حُلةً فِضيةَ اللون وقميصًا أبيض ورابِطةَ عُنقٍ زهريةَ اللون، رفع يديه مُحييًا المدعُوين ثم دارَ حولَ السيارةِ في سُرعةٍ وفتحَ لها الباب، استقرت أنامِلُها الرقيقةُ في راحتهِ اليُسرى في استسلام وهي تهبِطُ من السيارة، من يراها لا يُصدِّقُ أنها تمُتُّ لهذهِ القريةِ المُتواضِعَةِ بصِلةٍ بل يشعُرُ أنها أميرةٌ تُطِلُّ عليهِ من إحدى القصصِ الخيالية، كانت في أوج سِحرها، ارتدَت فُستانًا حريريًّا زهريَّ اللونِ تمدَّدَ على جسدِها في دِعَةٍ وفرح، كان الفُستانُ مُستمتِعًا بارتدائها له مُستَمِدًّا رقتَه منها، تبعثَرَت على نصفِهِ السُفلي حباتٌ لامِعَةٌ بلا انتظامٍ كأنَّها النُجُوم في أفلاكِها، لم تضعْ على وجهها من مساحيقِ التجميلِ

سوى أحمرَ شِفاهٍ زادَ شفتيها لهيبًا وتكحَّلَت عيناها فتبدَّلت نظرةُ عينيها الحزينةِ إلى نظرةٍ أكثر غُموضًا، لم تتَخلَّ عن حِجَابِها الذي دارَ حولَ رأسِها في حميميةٍ حاجبًا عن الأعيُنِ نحرَها العاجِي، أمسكت بيُمناها باقةً من الوردِ أبيضَ اللون استخدمتها في التلويحِ لصديقاتِها وكأنَّها تستثيرُ غيرتَهُنَّ بها فيما تأبَّطَت ذراعَ حُسام بيسراها، رآها كما لم يرَها من قبل، رائعةً وفاتِنةً بكُلِّ المقاييس، كلُّ هذه السنوات كانت تحتَ بصرِه ومِلءَ سمعِه فلماذا لم يرها بهذه الصورةِ من قبل؟ تجسَّدت أمامَ عينيْه الحِكمةُ الشهيرة، لا تشعُر بقيمةِ الأشياء إلا إذا فقدتها..

أما هي فكانت تبتسِمُ للجميعِ بلا استثناء حتى رأته، رأت في عينيهِ ألمًا مكتُومًا لا يشعُرُ بهِ سواها، أدارت رأسَها تُكمِلُ توزيعَ سِحرِها على النِسوةِ اللائي التفَفْن حولها وقبَّلْنَها بحرارة، انتهز لحظةَ تركِها لذراعِ خطيبِها وانشغالها مع صديقاتها فتقدَّمَ إليه واحتضَنَهُ بحرارةٍ وتمنَّى له السعادةَ مُخلِصًا فشكرَهُ حسام داعيًا له بالعُقبى القريبة..

دخلت وخطيبها المنزلَ وجلسَا في منتصفِ غرفة المعيشةِ، الغرفةُ التي طالما شهِدَت قصائِدَ عِشقِهِما الصامتةَ كلما التقت عيناهُما في الأيام الخوالي والتي تشهَدُ الآن نعي حُبِّهما على أنغامِ الموسيقى، خُيِّلَ إليهِ أنَّ جُدرانَ الغُرفةِ تستنكِرُ وجودَه بعدما عجزَ عن تحويلِ الحبِّ إلى زواج وتُطالِبُه بالانصراف، تحاشت النظرَ إليه وتساءلت فيما بينها، لماذا جاء؟ هل أرادَ أن يشهدَ نهايةَ قصتهما بعينيه أم أرادَ أن يُعذِّبَ نفسَه ويُعذِّبَها معه؟ عندما هجرها بكَثْه وعندما عادَ سامحته قبلَ أن يعتذر بل وأعطتهُ الفُرصةَ من جديد فماذا يُريدُ منها؟ فليذهب ويُلقي اللومَ على أُمه أما هي فقد كانت وفيةً لأبعدِ مدى، أجفلَت فجأة عندما وضعَ حُسام يدهُ على يدِها برِقةٍ ناعمة، نظرَ في عينيها بمُنتهى الأمل مُستبشِرًا بحياته معها، تورَّدَ خداها في خجلٍ وسألت نفسها: "ما ذنبُ هذا الذي يحتوي كفي بيده؟"، لا تُريدُ أن تخونَ التزامها تجاهه، غمسَت عقلَها في بحرٍ من الهدوء لأقل من ثانيةٍ وجدَّدت عهدها الذي قطعَتهُ على نفسِها، ستمنحُ حُسام كُلَّ ما يفرِضُهُ الواجِبُ عليها من احترام، رفعت رأسَها

ناظرةً إليهِ ومنحتهُ أكثرَ ابتساماتِها روعةً فتهلّلَ وجهُهُ أكثر، هنا دخلت أمُّها حاملةً "الشربات" وقدَّمت كأسًا لكلٍّ منهما وأمرتهما أن يسقيَ كلٌّ منهما الآخرَ بيده، إنها اللحظةُ الأكثرُ إثارة للحرجِ خلالَ الحفلِ والأكثرُ إثارة للحديثِ بعده، نظرَ كلٌّ منهما إليها في خجلٍ يستعطفانها، ارتفعَت ضحكاتُ المدعوينَ وهم يتلذَّذون برؤيتِهما غارِقَينِ في بحرٍ من الخجل، بحرٍ ألقى ببعضِ الرذاذِ على وجهيهما، أخرجَ حُسام مِنديلَه وجفَّفَ حباتِ العرقِ التي تكونَت على جبهته فيما فعلت بسمة المِثل بوجهِ رحاب، ارتفعت همهماتُ المدعوينَ مُشجِّعةً لهما، يبدو أنه شرٌّ ولا بُدَ منه، رفعَ كلٌّ منهما الكأسَ ويده ترتعِش حرجًا وخوفًا أن ينسكبَ الشرابُ من يدِ أحدهما على ثيابِ الآخر وتصيرَ حِكايةً مُضحِكةً طيلةَ حياتهما، تعلقت العيونُ بهما وهما يسقيانِ بعضهما وكان هو يشرَبُ معهما أيضًا، يشربُ كأسًا من العلقمِ الخام مُذابًا فيهِ جبالٌ من المرارة، أمسكت بسمة صندوقًا صغيرًا من القطيفةِ الحمراءِ على شكلِ قلبٍ وناولته لحسام فوضعَ الكأسَ من يده في سرعةٍ مُنهيًا تلك الفقرةَ الضاحكةَ

على المدعوين فارتفعت تأوهاتهم الغاضبة، لم يتسنَّ لهم رؤيةَ "الشربات" مسكُوبًا على ثيابِ أحدهما، أمسكَ حُسام بأصابعِها الرقيقة كي يُقَلِّدَها خاتمَ الخِطبة، انسابَ خِنصرُها خلال الخاتم في هدوءٍ وفعلت هي المِثلَ بيدِ حُسام فالتمَعَ الخَاتمُ الفضي في يدِه يعكِسُ فرحتَه العارمة، هنا كان مُحمد فِعلًا على شفا حُفرةِ الموت، لمسةٌ واحدةٌ ويرقُدُ فيها إلى الأبد، تراجعت نبضاتُ قلبه وصارَ عددها دونَ المُعدَّل، غامت الدنيا أمام عينيه وشعرَ أنه لا شيء، تهاوت سنواتُ عمرِه السابقة واندثَرت في طَرفةِ عين، ارتجفَ جسدُه واشتعلت النيرانُ في جميعِ أركانه، أحسَّ أن خاتم الخِطبةِ لا يُطوِّقُ إصبعَها بل يلتَّفُ حولَ رقبتِه يُنفِّذُ على بقيةِ حياتِه حُكمَ الإعدام، في أسوأ كوابيسه لم يتخيل أن يمسَّها غيره، كانت غيرته تبني حولها حصونًا لامرئية، يغارُ إن حادثَت أحدًا تعرِفُه صُدفةً في الطريق ويغارُ إن اضطُرت إلى السلام بيدها على أيِّ قريبٍ من أقاربها، يغارُ عليها من كُلِّ إنسانٍ حيٍّ أو شيءٍ جامدٍ يراها فماذا الآن وغيرُهُ يُمسِكُ يدَها وتتأبط ذراعه؟ لم يستطعْ أن يتحملَ أكثرَ من ذلك فأخرجَ

هاتفه المحمول من جيبه وتصنَّع الانشغالَ به ثم خرجَ من المنزلِ، لم يُحدِّد وجهته لكنها بالتأكيد ليست المنزل فآخر وجهٍ يُريدُ رؤيته الآن هو وجهُ أمه..

أوصدَت الحياةُ بابَها في وجهِهِ بُمنتهى القسوةِ والإحكام، بابٌ أسود سرمدي من فضاءٍ غير ملموس، كم هو قاسٍ هذا الشعور، عندما تضيقُ عليكَ الأرضُ بما رحُبَت فتُصبِح سِجنًا كبيرًا بلا جدرانٍ وبلا أسلاكٍ شائكة، تشعُرُ أنك وحيدٌ في هذا العالم، تهفو إلى صدرٍ ترتمي فيه لتبكي فلا تجد، مُجبَرٌ أن تقمعَ براكينَ الألمِ داخلك في صمت، تنظُرُ لكلِّ شيءٍ حولَك تودُّ لو تبُثُّه همَّك فتصطَدِمُ بجموديتِه وعجزِهِ عن فهمِك، أعظمُ الشُّعراءِ وأمهرُ الكُتابِ لا يستطيعون وصفَ حالةِ قلبه الآن..

هامَ على وجهِهِ في طُرقاتِ القريةِ هارِبًا مِنها ومن كلِّ ما يربطه بها، سارَ إلى محطةِ القطار واقتطعَ تذكرةً إلى المنصورة، وقفَ ينتظِرُ واضعًا يديه في جيبي بِنطالِه، تَحفزَّ الباعةُ الجائلون للوثوبِ داخِل القطار رُغمَ أنهم لن يُزاحِموا

الركابَ على المقاعد لكن التحفُّزَ صارَ جُزءًا من طبيعتهم، على مقرُبَةٍ منه شابٌّ وفتاة تشابكت يداهُما، كانا على ما يبدو يُمنيانِ نفسَيهما بنُزهةٍ على ضفافِ النيلِ ليُسِرَّا إليهِ بأمانيِهم، يرسُمانِ على صفحاتِه الهادئةِ تفاصيلَ حياتِهم المُستقبلية ويجعلانه شاهدًا على كلِّ الوعودِ التي قطعاها على نفسيهما، مالَ الفتى على أُذنِ رفيقته وسكَبَ على مسامعها كلامًا دغْدغَ مشاعرها فاندفعت الدماءُ إلى وجنتيها وخضَّبَتها خجلًا، وضعت يدها على فمِها قبل أن تنطلِقَ ضحكتها الساحرة خِشيةَ لفت الأنظارِ إليهما بينما يرقُص قلبُها طربًا على وقعِ كلماتِ الغزل، حدَّقَ الفضوليون فيهما مُحاولِينَ قِراءةَ الكلماتِ التي تنسابُ من شفتيهما، بجانبهما سيدةٌ مُسنةٌ مطَّت شفتيها في امتعاضٍ لاعِنةً قلةَ الحياءِ التي أصابت جيلَ هذا الزمان..

في الناحيةِ الأخرى على الرصيفِ المُقابلِ لهما فتاةٌ وحيدةٌ أخذت تُراقِبُهما في شرود، لم يتبين ملامحَها المُبهمَة لكنه شعرَ أنها تحسِدُ تلك الفتاة التي اختارها ذلك الشابُّ لتُرافِقَهُ في بقيةِ مشوارِ حياته بينما هي تنتظرُ ذاك الذي كتبَه القدرُ في

صحيفتها، لعلَّها الآن تلعنُ الانتظار، عيناها مُركزتان على العاشقَينِ مُحاوِلةً اختراقَ جسديهما إلى مكنونِ قلبيهما تُريدُ أن تتبينَ صِدقَ مشاعرهما، أجفَلَت مع سماعِ صوت القطار القادم من بعيد، مسحت بسبابتها شيئًا ما من تحتِ عينيها، هل كانت تبكي؟ لم يكُن باستطاعةِ مُحمد أن يرى دمعَها يسيلُ من مكانِه هذا لكنه تأكدَ من ذلك عندما أخرجت مِنديلًا من حقيبتها، رُبما كانت عاشِقةً رحلَ عنها حبيبها لسببٍ ما أو حالَ القدَرُ بينهما كما حالَ بينه وبين رحاب، حركت رأسها في عفويةٍ فوقعَت عيناها عليه، التقت عيناهُما عبر الطريقِ الفاصِل بينهما لأقل من ثانية كانت كفيلةً لتُدركَ أنَّه ينظُرُ إليها وكافيةً له حتى يشعُرَ بكمِ الحُزنِ الذي يحويه صدرُها، همَّت بتحريكِ حاجبيها تساؤلًا عن سِرِّ تحديقه فيها لكن القطارَ لم يمنحها الفُرصةَ لذلك، قطعَ الاتصالَ بينهما وأنهى عتابَها الصامتَ قبل أن يبدأ، تركَ الباعةَ الجائلين يتدافعون قاطِعينَ الطريقَ أمامَ الرُّكابِ الهابطين منه ثم صعد خلفهم في خطواتٍ بسيطة وعيناهُ تبحثان عن الفتاةِ على الناحيةِ الأخرى، لعله أرادَ أن يسألها في

صمتٍ عن سببِ حُزنِها، وقفَ على البابِ المُقابلِ للناحيةِ التي تقِفُ فيها، ما زالت تنتظِرُ قطارها الذي سيأخذها إلى وِجهَةٍ عكس وجهتِه تمامًا رُغمَ هذا الشعور الذي انتابَه من نظرةِ عينيها أن طريقَهما يجِبُ أن يكونَ واحدًا، نظرَ إليها وضاقت حدقتاهُ كأنَّه يسألها ما بكِ؟ لم تخشَ نظراته ولم تُشِحْ عنه بوجهها، نظرت إليه في شرودٍ حتى خُيِّلَ له أنها لا تراه، بدأَ قطارُه في التحرك، رفعَ حاجبيهِ كثيرًا كأنه يُلِّحُ في السؤالِ علَّها تُجيبُه بسرعةٍ قبل أن يرحل، انفرجت شفتاها وكأنها ستُجيب، تعلمُ أنه لن يسمعها لكنه حتمًا سيشعرُ بها، رابِطٌ خفي ربطَ بين عقليهما، لكنها أدارت ظهرَها إليه وابتعدت في الاتجاهِ المعاكس فظلَّ يتتبعُها بنظراتِه، دوى صوتُ القطارِ القادم من الاتجاهِ الآخر، القطارُ الذي رُبما تنتظره، حانت منها التفاتةً ناحيته تتحرى هل ما زال ينظُرُ إليها أم لا؟ نظرت في ترقُّبٍ إلى القطارِ القادمِ الذي أوشكَ أن يدخُلَ المحطة، فجأةً وبدونِ تفكير ققفزَت أمامَ القطارِ ووقفت في طريقِه، تناقصت المسافةُ بينهما بسُرعةٍ كبيرة فصرخَ مُحمد مُحاولًا تحذيرَها،

صرختُه جعلت الرُّكابَ حوله ينظرونَ إليه في تعجُّبٍ واستنكار ودفعتهم علاماتُ الفزعِ على وجهِهِ للنظرِ إلى الاتجاهِ الذي ينظُر إليه لكنهم لم يروا شيئًا يستحِقُّ صرختَه، كلُّ ما رأوهُ هو القِطارُ المُعتاد الآتي من الاتِجاهِ المُقابل، جلسوا في أماكنِهم يلمِزونَ هذا الفتى الأرعن، كادَ أن يصرُخَ ثانيةً لكن الصرخةَ تجمدَت في حلقِه ولم تتجاوز شفتيه، القطارُ الذي رآه يقترِبُ بسُرعةٍ كبيرةٍ منها لم يرتطِم بها أو يدهسَها بل تخلَّلَها، بدا له جسدَها شفافًا في هذه اللحظة، عبرَ القِطارُ من خلالِها وحرَّكَ الهواءُ الذي صنعَهُ كلَّ شيءٍ فيها، شعرَها والوِشاحَ الذي لفَّتهُ حولَ رقبتِها وفستانَها لكنه لم ينجح في تحريكِ نظراتها الجامدة التي تُسددها نحو محمد، رُويدًا رُويدًا اتضحت ملامحُ الوجهِ الشاحب، إنَّه وجهُها بكُلِّ تفاصيله ورِقته وبساطته، وجهُ رِحاب، سرَت رعشةٌ باردةٌ في جسدِه، هربَ من نظراتِها وجلسَ على مقعدِهِ بجوارِ النافذةِ يلهَثُ من فرطِ الانفعال، أعادَ النظرَ في رُعبٍ إلى مكانها ثانيةً لكنها اختفت..

تذّكَرَ ما حدث منذُ أقل من ساعة، لم يستطع طردَ صورة حُسام مُمسِكًا بيدها من مُخيلته، حاصرته كما يُحاصِرُ الموجُ طفلًا غفلَ عنه أبواه حتى طلب الغوثِ لا يقدِرُ عليه، ضغط جانِبَيْ رأسِه برَاحَتَيه فتوجسَ الرُّكابُ خيفةً منه وظنوا به كُلَّ الظنون، صرختُه السابقة وتأوهاتُه الحالية لم تدع لهم مجالًا للشك أنه مُصابٌ بلوثةٍ عقليةٍ أو مرضٍ نفسي، وكعادة الناسِ في هذه المواقف لم يُحاولوا مساعدتَه بل ابتعدوا عنه وهو لا يشعر بهم، ها هو يهربُ من الواقِع ثانيةً بدلًا من مواجهته، كم من الزمنِ سيمكُث عند ابن خالته في المنصورة؟ يوم، أسبوع، شهر؟ حتمًا سيعود مهما طالت مُدة هروبه، صرخت نفسُه "ليتني انتهيتُ في عرضِ البحر"، استعاذَ بالله من شرِّ نفسِه وقرأ المُعَوِّذَتينِ وبعضًا من الآيات والأذكار..

في التاسِعةِ تمامًا وصلَ أخيرًا إلى المنصورة، المدينة التي قضى بها فترةَ دراستِه الجامعية، ليس لهُ أقارِب بها سوى ابن وابنة خالته التي تُوفيت منذ عشرِ سنوات بينما لم يمُر على وفاة أبيهما أكثر من عامين، اصطفَّت سياراتُ الأجرةِ أمام سُلم

الخروج من المحطة مُطلِقةً أصوات مُنبهاتها جذبًا للقادِمينَ خاصةً المُنهكين والأغرابَ منهم، فضَّل المسيرَ وسطَ شوارِعِ المدينةِ التي تتثاءَب ولا تستطيع النُعاسَ، رُبَما لأنَّ قهقهات الجالسينَ في مقاهِيها لا تمنحها الهدوءَ اللازم أو رُبما تُريدُ الاطمئنانَ على هؤلاءِ الذينَ قصدوها من أجلِ زيارةِ طبيبٍ شهيرٍ لتخفيفِ أوجاعهم، اجتاحت رَجفَةٌ باردةٌ أنحاءَ جسدِه فنفخَ في كفيهِ بقوةٍ مُحاوِلًا دحرَها، إنها رجفةُ ليلِ يناير، تشبَّعَ الهواءُ ببُخارِ الماء وتلبَّدَت السماءُ بالغيوم، سؤالٌ يلُوحُ بذهنِ كلِّ من يرى حالتها هذه، متى ستُمطِر؟ لم تتأخر إجابةُ السماءِ كثيرًا، نثرَاتٌ واهنةٌ سقطت تختبِرُ استعدادَ أهلِ الأرضِ للمطر قبل أن تُرسِلَ زخاتِها تِباعًا، بدأ الباعةُ الذين يفترِشونَ الطُرقاتِ في تغطيةِ بضائعهم وهرولَ المُشاةُ للاحتماء بمداخِلِ المباني، لم يختبئ مثلهم بل ظلَّ يستمتِعُ بكلِّ قطرةٍ تسيلُ بينِ منابت شعره وتنزلِقُ على جبهته ورقبته إلى داخل ملابسه لعلَّ المطر يُطفئ أوجاعه التي تأجَّجَت وذِكرى حسام ورحاب تعودُ إلى عقلِه من جديد، ماذا تُراهُ يحدُث الآن؟ هل هما الآن في

غُرفةِ المعيشةِ يتسامران بدون حرجٍ بعد أن رحلَ المدعوون؟ هل تبتسِمُ في وجهِه الآن وهل يُلقِي على مسامعِها كلماتِ الغزلِ فتتورَّدُ وجنتاها خجلًا؟ أسرعَ في خُطواتِه أكثر وأكثر هربًا من المشاهدِ التي تُلاحِقُ ذهنَه فبدا سيرُه أقرب للعدْو حتى وصلَ إلى المبنى الذي يسكنُه ابن خالته، فتحت له سمر ابنةُ خالته، إن كان اسمُها يعني الحديثَ ليلًا فصوتُها العذبُ يستهويكَ لسمَاعِه صباحًا ومساءً؛ سمراء، جِلدُها رقيقٌ ومشدودٌ على وجهِها كتلكَ التماثيلِ المنحوتةِ في أروقَةِ المتاحف، أنفُها وفمُها دقيقان وكأنهما لطِفلَةٍ في السادسةِ من عمرها، عيناها الهادئتانِ وجسدُها الضئيل يُشعِرانِ من يراها بشعورِ الأُبوةِ نحوها، ابتسمت فأبانت عن أسنانٍ ناصعةٍ بيضاء استقَّت لونَها من صفاءِ قلبِها، سألها عن أحوالها وعن اختباراتِ نصف العام فأخبرته أنها انتهت منها أمس فقط ثم أشارت إليه بأنَّ أخاها في غُرفته الخاصةِ ينتظره، مع دخوله سعلَ بقوة، دُخانُ السجائر احتلَّ الغُرفةَ بصُورةٍ رهيبة حتى إنه سدَّ الفراغات بين الكُتب المُبعثرة على مكتب الحديدي، رحِمَ

اللهُ أباه، أراده مُتفرِّدًا فأعطاهُ لقبًا يصلُحُ لعائلةٍ بأكملِها، ذو هيئةٍ متناسقةٍ ووجهٍ قمحيٍّ باسِمٍ وشعرٍ زاده الطولُ وسامة، تصافحا في قوةٍ ثم فتح محمد النافذةَ على مصراعيها ليُطلقَ سراحَ الدُّخان فبدأ الهواءُ البارد يحُل محله، استرسلا في الحديثِ عن أحوالِهما في الوقتِ الذي كانت فيهِ أصابع الحديدي بين لحظةٍ وأخرى تجري على لوحةِ حاسوبِه الذي يجلِسُ إليه أسرع بكثيرٍ من كلمات مُحمد، حوَّلَ الحديدي وجهَه إلى ابن خالته وقال في غموضٍ شديدٍ امتزجَ بابتسامتِه الواسعة:

- روق يا حج، أوعدك بكام يوم معشتهمش ولا هتعيشهم تاني طول حياتك..

الفصلُ السابع

دقَّت الساعةُ السادسةُ إعلانًا عن انتهاءِ فترةِ العملِ الصباحية في مصنعِ الملابس فبدأت العاملاتُ في لملمةِ حاجياتِهنَّ الخاصة استعدادًا للانصراف وتوافدَ العاملون الذكور على المشغَلِ لبِدءِ فترتهم المسائية، أتوا مُنهكينَ تفوحُ من أجسادِهم رائحةُ العرقِ الذي جفَّ على أجسادِهم من أثرِ أعمالهم في أماكن أُخرى منذ الصباح، بعضُهُم أخذَ في تدخينِ سجائره بشراهة وانشغلَ الآخرون في الثرثرةِ مع العاملات المُنصَرِفات، كانت الفترةُ الانتقاليةُ بالنسبة لهم - نساءً ورجالًا - بمثابةِ تفريغٍ لشُحناتِ الكلامِ التي ملأتهم بها المواقف على مدارِ اليوم، لم يلتفِتوا إلى عاملةِ النظافة التي تؤدي عملها في آليةٍ اعتادوها منها، وجهُها جامِدٌ فيما قلبُها يغلي من الثورة، أخبرها مُحمد منذ قليلٍ عبرَ الهاتف أنَّه سيقضي عِدةَ أيامٍ مع ابن خالته في المنصورة والسبب المُبهم الذي لم يُصرِّحْ به هو رحاب، كم تمقتها بقدرِ حُبِّ ابنها، تمقتها لأنَّها أحسَّت أن حُبها صار في قلبِه أقوى من أي شيءٍ في الكون لدرجةٍ دفعته

للرحيل عن أمه عندما رفضتها وهي ليست على استعدادٍ لأن تخسرَه ثانيةً حتى لو على حساب سعادته هو، كل من يعرفها لم يُصدِّق أبدًا صَنيعَها مع ابنها، قسوتها عليه وعدم تفهمها لمشاعرهِ تجاه رفيقة قلبه ولم يجدوا تفسيرًا لهذا التغير في شخصيتها، هل تطبَّعَت رُغمًا عنها بطِباعِ زوجها القاسيةِ على مدارِ السنوات التي عاشتها معه؟ هل كان لنشئتها في كنفِ أبيها المُسافِرِ على الدوام لظروفِ عمله وزوجته التي تزوجها بعدما ماتت أُمها يوم ولادتِها فلم تذُقْ حنانًا في أكثرِ الأوقاتِ احتياجًا إليه؟ هل كان لذلك كله أثرٌ في تحولِ قلبها تجاه ابنها؟ لا أحد يدري..

انتهت من عملها وانطلقت تحُثُّ خُطاها وسطَ الزِّحام، لم تتأثر تعبيراتُ وجهِها المُتَغضِّن بصوتِ مُنبِّهاتِ السيارات التي زمجرَت في أُذنيْها وكأنها أُصيبت بالصمم فما يدورُ برأسِها أهمُّ بكثيرٍ جدًّا من غضبِ هؤلاء الذين يقطعون الطُرقات بسياراتهم ومشاكلهم السخيفة، خطرَ ببالها خاطِرٌ ما فبدَّلت طريقها في اتجاهِ المتجر الذي تعملُ فيه هند، بادرها الحاج

حسن بالتحيةِ وتساءلَ عن سِرِّ حضورِها بعد انصراف هند، أخبرته كذِبًا أنها انتظرت ابنتها كثيرًا عند مكان تجمُّعِ السيارات لكنها لم تأتِ خاصةً أنها سبقَ وأخبرتها أن ميعادَ انصرافِها من المحل قد تغيرَ للسادسة، نفى الرجُلُ تمامًا زيادةَ فترةِ العملِ ولو لخمسة دقائق إضافية وأخبرها أنَّ هند انصرفت مع سماح في تمامِ الخامسة، استأذنته أن يصِفَ لها الطريقَ إلى منزلِ سماح، نادى الحاج حسن أحدَ الصِّبيةِ من الورشةِ المُقابلة ووصف له طريقًا ما ثم أمرَه أن يقودَ السيدة خلاله، شكرته وسارت خلفَ الصبي وصدرُها يفيضُ بغضبٍ ووعيدٍ لا حدودَ لهما، أشارَ الصبيُّ إلى المنزلِ المنشود فاقتربت منه وطرقت بابَه بقوة، فتحت سماح وهي تضعُ شيئًا على رأسِها لتُغطي به شعرَها المكشوف، ارتاعت عندَ رؤيةِ أُمِّ صديقتِها، اتسعَت عيناها حتى أقصاهما واحتبست الكلِماتُ في فمِها وأفلتت يدُها المُرتعِشةُ غطاءَ رأسِها فسقطَ على الأرض، رَدُّ الفِعلِ هذا فجَّرَ هواجسَ أحلام وشكوكها ألف مرة وأكدَّ لها أنَّ ثمةَ أمرًا جللًا على وشكِ أن يتكشَّفَ أمامها، دفعت سماح

بعيدًا عن طريقها بمنتهى القوةِ واندفعت إلى الداخل بدونِ حرفٍ واحدٍ، لم تأبه للعجوزِ الجالسة القرفصاء في وسطِ غُرفةِ المعيشة والتي أخذت تصرُخُ وهي لا تعلم من تكونُ هذهِ المرأة التي اقتحمَت بيتها وأخذَت تفتحُ كلَّ الأبوابِ بجنونٍ بحثًا عن ابنتها، سمعت تأوهاتٍ خافتةً تأتي من خلفِ البابِ الوحيد المُغلق، نظرت في سُرعةٍ خاطفةٍ ناحية سماح التي أوشكت على الانهيار وأم وليد التي تُجاهدُ جسدَها الضخم حتى تمنع أحلام من فتحِ الباب التي دقَّ قلبُها بعُنفٍ كطبولِ الحربِ في حَومَاتِ القِتال، اقتحمت الغُرفة بعُنف فاحتبست التأوهاتُ في حَلقِ هِند، كانت عاريةً كيومِ ولدتها أمُّها التي تراها الآن ووليد يعلوها في وَضعٍ فجٍّ لا يكونُ سوى بين رجلٍ وامرأته، تجمَّدَت أحلام في مكانِها كتِمثالٍ من الشمعِ وتوقف كُلُّ شيءٍ في جسدهاعن العمل من هولِ الموقف، وحدهُ قلبُها الذي لم يتوقف بل على العكسِ تمامًا أخذَ يضُخُّ الدِّماءَ بصورةٍ أسرع لمعادلةِ تلك البرودة التي أصابت كلَّ خليةٍ في جسدها بالشلل، ارتفع ضغطُ الدمِ في عروقِها وانفجرَت الشُّعيراتُ الدموية في أنفِها،

لم يبدُ أنها تأثرت بالرُّعافِ الذي أصابَها، تركزَّت نظراتُها التي تُحرِّكُ الصخرَ على عيني هند الزائغتين، احمرَّت عينا الأُمِّ كجمرتينِ من جهنَّم وابيضَّ جسدُ الابنةِ الغضُّ كأجسادِ الموتى بعدما ماتت كلُّ كُرياتِ الدم الحمراء فيه من الرعب..

أطبَقَ سكونٌ رهيبٌ على المكان وبدا المشهَدُ أقرب للصورةِ الفوتوغرافية منه للحياة حتى إنَّ الستائرَ المُعلَّقَةَ على النافذةِ كسرَت قانونَ الطبيعةِ في هذه اللحظة ووقفت في وجهِ الهواء المُتسلل من الزُّجاجِ المفتوحِ احترامًا لهذا الموقفِ الجلل، قطعَ وليد ثباتَ المشهد ونهضَ من الفِراش، أحاطَ خصرَه بمِنشَفَةٍ ليواري سوأتَه فيما نهضت هي من نومتها ولملمَت غطاءَ السريرِ لتحجُبَ عورَتها، انكمشت إلى الوراء والتصقَت بحاجزِ السرير لتحتمي به من إعصارِ أمها الهادِر المُنتظَر، تمنَّت لو أنَّ الأرضَ ابتلعتها الآن أو أنها حتى ما وُجِدَت في هذه الحياة، تحوَّل وجهها إلى أسفل في خزيٍ وسوَّدَه العارُ الذي جلبتهُ لأمِّها قبل أن تجلِبَه لنفسها..

اتجهت أم وليد إلى أحلام في قمةِ التبجُّح مُستنكِرةً اقتحامها لمنزلِهِم بهذه الصورة، لم تكتفِ بهذا بل هوَت بالصاعقةِ الكُبرى على رأسِ أحلام وأخبرتها أن وليد مُتزوِّج بهند عُرفِيًّا، لم يكُن من الطبيعي أبدًا أن يتحملَ عقلُها البشري هذه الصواعقَ المتتابعة فخرَّت مغشيًّا عليها، ارتطَم وجهُها بالأرضِ وانكسرت إحدى أسنانها الأمامية، عندما أفاقت وجدَت نفسَها مُمدَّدةً على نفسِ السريرِ الذي اقترفت فوقَه ابنتها جريمتها مُلوِثةً شرفَ أُسرتِها بالدنس، قفزت بصُورةٍ لا تتناسبُ أبدًا مع سنها وإعيائها من عليهِ في تقَزُّزٍ شديد، كانت هند تقفُ أمامها مُرتديةً كامِلَ ملابسها فنظرت إليها أمُّها نظرةً فيها مقتُ الدُّنيا كلها، تنخَّمت أحلامِ ثم بصقَت في وجهِ ابنتِها ولطمَتها عليه، تتابعت اللطماتُ واللكماتُ مع وابلٍ من اللعناتِ والشتائِم لكنَّ هندًا لم تذرِف دمعةً واحدة، بمَ تُفيدُ الدموعُ الآن أمامَ هذا الجحيمِ الذي انفتحَ على مصراعيه؟ توقفت أحلام عن الضربِ ثم جذبَت ابنتها من يدِها في صمتٍ وخرجت بها تحت نظَرَيْ سماح وأمها.

جلست هي وابنتها تُتابعانِ حلقةً لأحد المُسلسلاتِ المُدبلَجةِ وكأنَّ ما حدثَ منذ قليلٍ في منزلِهما ليس بذي أهميةٍ على الإطلاق لكلتيهما، حتى وليد عندما خرجَ من غُرفتِهِ طلبَ من أُمِّهِ مالًا فأشارت دونَ أن تتكلم إلى جوارِ التِلفاز فأخذَ النقودَ كُلها ولم يترُك شيئًا ثم خرجَ من المنزل، أشعلَ إحدى سجائره رخيصة الثمن ثم أجرى اتصالًا بصديقٍ له وأخبره أنه قادِمٌ في الحال، الطريق الذي يسيرُ فيه لم يعُد مُعبَّدًا بعد أن تجاهلَه المارةُ منذُ أمدٍ بعيدٍ، الرائحةُ القذرةُ خنقَت الهواءَ المحيطَ لكنها لم تخنق رِئَتيه اللتين تعودتاه، داست قدماهُ جثةَ حيوانٍ نافِقٍ فوثب بسُرعةٍ إلى الأمام فتهشمت تحت قدميه بقايا زُجاجٍ مكسور، نبحَت عِدةُ كلابٍ في اتجاهه ثم اقتربت منه في حذرٍ وتشمَّمته، تمتمَ لها بكلماتٍ ما فرقدت في مكانها بعد أن ميزت صوتَه وأطاعت سيدَها المهيب، أخيرًا لاحت له المملكة، عربةُ قِطارٍ تم إحالتها إلى التقاعُد في المحطةِ القديمةِ المهجورة، لو كان لها وصفٌ أدق لسُمِّيت مملكة الظلامِ والدُخان، وضع

مرتادوها قطعًا من القماشِ والكرتون المُقوى على جميعِ أبوابها ونوافذها حتى مدخلها الخلفي الذي يدخلونَ منه وتشبَّعَ هواؤها بالكامل بأدخنةِ مُخدِّراتِ الحشيشِ والبانجو، الأعمدة المعدنية الصماء وما تبقى من المقاعد الخشبية تُشاطرهم أنفاسَهم، الضوءُ الوحيدُ الذي يتمرد على قوانين الظلام تلك هو ضوءُ لفافاتِ السجائر التي تدورُ بينهم حاملةً نزقَ لُعابِ كلٍّ منهم إلى فمِ الآخر، صمتُهم يدومُ ما دامت اللفافةُ مشتعلة تقديسًا لمراسِم التعاطي، قام جلال بتشغيلِ إحدى الأغاني الشعبية من هاتفه، كانت لحنًا نشازًا اختلطَ بعدةِ كلماتٍ سُوقيةٍ مُنحطَة لكنها على ما يبدو أشعلت فتيلَ إثارته فأخذ يتمايل ويرقص بنصفِ جسدِه العُلوي جالسًا في مكانه لكن يد وليد امتدت إلى الهاتف لتُطفئَ إثارةَ جلال فنظرَ إليه صديقاه في دهشة، فعليًّا هما لا يرَيانه لكن العجيب أنه شعرَ بنظرتيهما فأدارَ وجهَهُ في الاتجاهِ الآخر ونفثَ دُخان سيجارته، خرجَ السؤالُ من فمِ متولي بطيئًا ثقيلًا كأنَّهُ عَجُوزٌ أصابَ الشللُ لسانَه:

- مالك يا صاحبي؟..

أفرَدَ وليد إحدى قطعِ الكرتونِ ثم تمدَّدَ فوقها، وضع يديه إلى جوارِه مُلتصِقةً بجسدِه كجُثةٍ تنتظِرُ التكفين، تنحنحَ جلال وتنَخَّم ثم بصق إلى جوارِه وكرَّر سؤال متولي:

- مالك يا ليدو؟..

لم يكن متولي على استعدادٍ لمعاودة سؤاله مراتٍ أخرى فركلَ قدمَ وليد بقدمه اليُمنى ثم صرخَ فيه:

- متنطق يا زفت!..

- البت هند..

في لحظةٍ واحدةٍ تقريبًا انطلقَ صوتا جلال ومتولي في حيرةٍ وفضول:

- مالها؟..

- أمها شافتني أنا وهي النهاردة عندنا في البيت..

سعلَ متولي سُعالًا جافًّا، ناولَ لِفافة البانجو لجلال في تلقائية ثم قال بصوتٍ خفيض وكأنما يُحدِّثُ نفسه:

- كنت عارف إن ده هيحصل، والعمل دلوقتي؟ هتعمل إيه؟..

أتى صوتُ جلال بارِدًا وهو يقول:

- إنت مزعل نفسك أوي كدا ليه؟ هي دي أول مرة تِخلى بواحدة؟ اقلبها وفكك يا معلم وشوف نفسك..

استنكرَ متولي كلمات صديقه، وقال:

- يقلبها إزاي يا جلجل؟ دي بنت ناس مش بنت كلب يا عم..

احتدَّ جلال قائلًا:

- إيييه يا عم؟ هتعملنا فيها شيخ وللا إيه؟ محنا ياما نهشنا لحم طري ورميناه عضم ناشف عالسكك، وللا نسيت؟..

تجاهل متولي جلال هذه المرة ثم وجَّه حديثه إلى وليد:

- اتجوزها يا ليدو، وكويس إن مفيش حد قبلك لمسها..

- أتجوز مين يا ميتو؟ إنت اتجننت؟ إحنا من إمتى فكرنا نتجوز واحدة دُقناها وللا حتى مشينا معاها؟ إحنا نمشي مع ألف واحدة ونذُوق ألف واحدة تانية بس لما نيجي نتجوز تبقى واحدة مش من الألفين دول خالص، واحدة لسه بكيستها، الدبان نفسه محطش عليها..

- يعني ناوي تعمل إيه؟..

- مش عارف، بس الأكيد لازم أخلص منها قبل ما أخوها يعرف، علشان لو عرف هتحصل مشاكل كبيرة..

ألقى متولي لفافته على الأرض ثم سحقها بقدمه بقوة، إن كان ضميرا جلال ووليد ماتا منذ زمنٍ بعيدٍ فإن ضميره ما زال في طورِ الاحتضار يُنازِعُ سكراتِ الموت وهو لا يُريده أن يموتَ دُونَ إعطائه قبلَةَ الحياة، فقال:

- طب مانت اللي فاكك كيستها ومسويها بإيدك يا ليدو وإنت عارف إن محدش قبلك لمسها، متتجوزها يا عم وإبقى طلقها بعدين، وأهو تبقى ريحت ضميرك ومرميتش البت..

- تاني أتجوزها؟ أتجوز مين يا متولي، أتجوز مين؟ إنت اتجننت وللا إيه؟ دي واحدة باعت جسمها..

صرخَ متولي فتجاوز صوتُه حدودَ المملكة وهو يقول:

- هي باعته بفلوس؟ دي حبتك إنت، وبعدين دي لسه عيله وإنت اللي ضحكت عليها..

- العيلة والغبية تاخُد فوق دماغها، إحنا في زمن مفيهوش مكان للأغبيا، علشان كدا البت دي لازم تموت..

قالها كقاضٍ أصدرَ حُكمَ إعدامٍ سريع التنفيذ ثم نهضَ من مكانِه وغادرَ المملكةَ دونَ أي حرفٍ إضافي وعندما عاد إلى المنزل أخبرَ أمَّه بالحكمِ الذي أصدره سلفًا:

- أما، البت دي لازم تموت، مش عايزين مشاكل..

بمنتهى البرود أجابَهُ الشيطانُ على لسانِ أُمِّه وكأن ما يقولُه ابنها شيء عادي ومنطقي:

- خلاص سيبلي الموضوع ده وأنا هتصرف..

الفصْلُ الثامن

1

شدَّ الهواءُ الباردُ وجهيهما وتبدَّت لهُما أنفاسُهما الحارة التي اختلطت بعوادِم السيارات السائرةِ بجوارِهما، سارا إلى المنطقةِ التي يقَعُ فيها النادي، سياراتٌ فارهةٌ تصدَحُ منها الأغاني بصوتٍ مُرتفع، فتياتٌ يرتَدِين ملابِس زادت أنوثتَهُنَّ توهُّجًا بصورةٍ أغرت الشبابَ المُتسكِّعَ حولَ النادي فأطلقوا صافِرَاتِ الإعجابِ وألقُوا على آذانِهِنَّ كلماتِ الغزلِ غير العفيف، نِساءٌ يسِرن بِجِوارِ أزواجهن ويتزين بأثمَنِ الحُليِ يكادُ مُحمد والحديدي أن يشتَمَّا روائِحَ عِطورِهِنَّ النفاذة من مكانِهما هذا، أشعلَ الحديدي سيجارتَه الرابعةَ مُنذ خروجِهما ثم راقَبَ تعبيراتِ وجهِ مُحمد الذى لم يتأثر بأيِّ شيء يراهُ أمامه، فبَغَضِّ النظرِ عن اعتيادِه هذه المظاهرِ إبانَ دراسته بالجامعة فإنَّ ما يعتَمِلُ بقلبِه يمنعُه من التأثُرِ بها، ابتسم الحديدي ولكزَ محمد بمِرفَقِهِ وغمَزَ بإحدى عينيه سائِلًا إياهُ عن رأيه فيما يرى فأجابَ مُحمد في ضيقٍ شديد:

- رأيي في إيه يا حديدي؟ إنت جايبني علشان نتفرج عالبنات؟ هو إحنا لسه عيال؟ وبعدين منتا عارف إن الكلام دا مش في دماغي..

اتسعت ابتسامةُ الحديدي أكثر وأكثر ثم جذبَ مُحمد من ذِراعه وسارَا بمُحاذَاةِ النيل في اتِجاهِ الكوبري الحديدي الذي يربطُ بين ضِفَّتيهِ، مرَّا على بائِعَةِ الترمس التي أخذت تحضُّهُما على شرائه، اقتربَت منهما طِفلَةٌ سمراء في السابعةِ من عُمرِها تقريبًا تسيرُ حافيةً على الرصيف البارد، نحيفَةٌ يكادُ بِنطالُها يسقُطُ وهي تجرُّهُ جرًّا، لها شَعرٌ مُجعَّد يُحاوِلُ التَّمرُّدَ على قِطعةِ القُماش التى قيَّدَتهُ بها، جذَبَت طرفَ قميصِ مُحمد في استعطافٍ حتى يبتاع منها علبةَ مناديل، أعطاها الحديدي جُنيهًا دونَ أن يأخُذَ منها شيئًا في المقابل فرحلت عنهما سعيدةً بالغنيمةِ التي حازتها دونَ أن تخسرَ في المُقابلِ جزءًا من رأسِ مالها..

على امتدادِ بصَريْهِما تراصَّ العاشقون يتأملونَ صفحةَ النيلِ الهادئة، دِفءُ قلوبِهم يُسَرِّي عنهم برودةَ الجو ويمْرُقُ الوقتُ عليهم فلا يشعرون به، لا يقطَعُ عليهم لحظاتهم الحالمة إلا بائعو الفُل، يُصَدِّرون الحرجَ للفِتيانِ أمام فتياتهم فيجبرُونَهم على الشراء، دعوتهم المُعتادة ومِفتاحُ رزقهم "ربنا يخليهالك يا بيه ولا يحرمك منها أبدًا"، دعوةٌ يُؤمِّنُ عليها الشابُّ في غيظٍ وهو يدُسُّ يده في جيبه ليُخرِجَ لهذا اللعينِ جُنيهًا أو أكثر..

سبحت عينا مُحمد في مياهِ النهر وغرقَ في همومه من جديد، لطالما تخيَّلَ نفسَه هنا مع رحاب، يتأملُ معها صورةَ القمرِ الراقِصةَ على صفحةِ الماء، يسترجعان ذكرى أحاديثهما الهاتفية ويضحكان مِلءَ قلبيهما، تكونت دمعاتٌ ملتهبةٌ في عينيْه فمحاها بطرفِ أصابعه قبل أن تسيلَ على وجهه مخافةَ أن يفطنَ إليها الحديدي..

انتهيا إلى الكوبري أخيرًا، تمددت تحتَه امرأةٌ أربعينيةٌ كاشِفةً عن قدمِها المبتورةِ حتى تستدِرَّ بها عطفَ المارة، تتسولُ بإلحاحٍ وتُكرِّرُ دعواتٍ تحفظُها عن ظهرِ قلب، تتباينُ كُلُّ دعوةٍ على حسب الشخصِ المارِّ أمامها، فالطالبُ الذي يحمِلُ أوراقَه تدعو له بالنجاح والفتاةُ التي بلغَت سِن رُشدِها تدعو لها بالزواجِ من شابٍّ يجعَلُ عيشَها رغدًا والأمُّ التي تصطَحِبُ أولادها تدعو لها بطولِ العمر حتى ترى أحفادَ أحفادها وهلُمَّ جرًّا، إلى جوارِها رقدَ طفلاها نائِمَينِ دونَ غطاءٍ يدفَعُ عنهما مخالبَ البردِ القارس، مشهدٌ وخزَ قلبَ الحديدي بشدة، أشاحَ بوجهه عنهما عجزًا وشفقة لا نُفورًا وكِبرًا، وضعَ ما استطاع في يدِها ومضى دون أن يلتفت إليها، كان يحمِلُ في صدرِه قلبًا رقيقًا لا يتناسبُ مع شراهته في التدخين ولا مع ابتسامته التي تُعطي انطباعًا لكُلِّ من يراه بأنه لا يكترثُ لأي شيءٍ في هذه الدنيا..

بدأت المدينةُ تهدأ أكثر إلا من حركةِ الدراجاتِ البُخارية التي نشطت في هذا الوقت بصورةٍ كبيرة، عُمال التوصيل يحمِلون

إما دواءً لمريض أو طعامًا لجائع، تلاقت ذراتُ بُخارِ الماء فيما بينها وتلاحمت بانِيةً جدارًا عزلت به العيونَ عن مُنتهى البصر، أعمِدةُ الإنارةِ لم تستطِع تبديدَ الضباب فنصفها مكسور ونصفها الآخر لا يعملُ بكلِّ طاقته، ركَلَ الحديدي عُلبةً فارغةً لمشروبٍ غازيٍّ شهير فأفزعت القَططَ المُتجمعة حول صندوق القمامة، رائِحةُ العطَنِ التي تفوحُ من القمامة حولَ الصندوقِ المعدني لم تُفسِد عليها لذةَ وجبة السمكِ الفاسدة، تسمرَّت وأضاءت عيونها بقوةٍ ناظِرةً إلى الحديدي في تحَفُّز، يرقُدُ على الناحيةِ الأخرى من الصندوق رجُلٌ عَجوزٌ أصلع نمَت لِحيته بشكلٍ كبيرٍ، يرتدي خِرَقًا باليةً وقُفازين من الصوف غطَّيا راحتيْه فقط فيما بدت أصابعُه وكأنها نابتةٌ منهما، وضعَ على رُكبتيْه جِوالًا من الخيش الخشن مُحاوِلًا منعَ تيارات الهواء من التسلُّل إلى عِظامه، بين قدميْه سكنت قطةٌ صغيرة جدًّا لم تستطع على ما يبدو مناحَرةَ القططِ الكبيرة للظفرِ بشيء من وجبة السمكِ الفاسِدة فلجأت إليه، رمى إليها بكسرةِ خبزٍ تشمَّمتها ثم لاكتها في سرعةٍ ورفعت رأسها إليه طالِبةً المزيد

فأشار إليها بيديه الخاليتين في أسف، هل يعتقِدُ أنها ستفهمه؟ الغريبُ أنها أحنت رأسها في تفَهُّم، مسحت رأسَها في باطنِ حذائه وأخذَت تلعقُه باحِثةً بين ثناياه عن أيِّ شيء يسُدُّ جوعَها لكنها لم تجد فعادت إلى كنفِه خائبةَ المسعى واستسلمت للنوم..

طفرَت عينا الحديدي بالدموع، تذكرَ أبويه الراحلين، أمه التي رحلت بعد ولادةِ أخته بعامٍ واحد فقام الأبُّ بدورها إلى جانب دوره حتى لحِقَ بزوجته عِند خالقِهما وتركه هو وأخته يُجَابِهان الحياةَ وحدهما، تخرَّج منذُ عامينِ من كُليةِ الهندسة وقدَّمَ أوراقَه مِرارًا للعملِ بنفسِ المصنعِ الذي عمِلَ فيهِ أبوه كعاملٍ لأكثر من ثلاثين عامًا، الأولوية لمثله من أبناءِ العاملين لكن حتى الآن لم يصدُر القرارَ بتعيينه، استأثرَ أبناءُ العاملينَ بالإدارةِ العُليا بكلِّ الوظائفِ المتاحة ولم يتركوا شيئًا لأبناءِ العُمال، لم تشفع له شهادته الجامعية وتقديرُه الجيد لدى القائمين على المصنع، الشفاعةُ في هذهِ الأيام للوساطة وليس للمؤهِّل أو الخِبرة، نظرَ إلى الطريقِ المُظلِمِ أمامه ورأى الأملُ يرتجِفُ في برودةِ الليل، ما حدث في الأيامِ الثلاثةِ الماضية

أخرجَ الأملَ من تابوتِه مُرتقِبًا قُبلةَ الحياة فهل تُراهُ يعودُ حيًّا أم يُدفَنُ إلى الأبد؟..

عادا إلى المنزل فوجدا سمر في انتظارهما قلقةً كعادتها على أخيها، لا تشعُر بأمانٍ إلا ودُخانُ سجائرِه يُعبئُ المكان، تعشقهُ لدرجةٍ أبعدُ من حُبِّ الأختِ لأخيها، تعتبِرُهُ الأبَّ الذي لم تهنأ به والأم التي رحلت ولم تحنُ عليها، عاتبها في رِفقٍ على عدمِ نومها حتى الآن، ذهبت لتُشاهد التلفازَ في غرفتها وذهبَا إلى غُرفتيهما لتبديلِ ملابسهما، ارتمى مُحمَّد على السريرِ محاوِلًا النوم، أشعلَ الحديدي إحدى سجائره ثم جلسَ أمامَ شاشةِ حاسوبه يُتابِعُ الأخبارَ التي تتوالى في سُرعةٍ على مواقِعِ التواصل الاجتماعي، انتهى من جِلسَتِهِ وذهبَ إلى غُرفةِ أخته، غطَّت في نومٍ عميقٍ فيما التِلفازُ لا يزالُ يعمل، فكَّكَ أصابعَها المُتجمدَة حولَ أداةِ التحكُّمِ عن بُعد - الريموت كنترول - ثم وضعَ على جسدِها غِطاءً ثقيلًا، جلسَ إلى جوارها وتأمَّلَ وجهها الطفولي البريء مُداعِبًا شعرها المُتهدِّل، أمسكَ بيديها مُحاوِلًا تدفئتهما ثم طبعَ قبلةً على جبينِها بثَّ فيها كلَّ حبه

وحنانه، اطمأنَّ إلى أنَّ الدِّفـءَ بدأ يسري في أوصالِها فأغلَقَ عليها البابَ وعادَ إلى غرفته..

نامَ جسدُه لكن عقله لم يذُق طعمَ النُّعاس، أحلامُه الوردية تأبى الاكتمالَ حتى لا تصدِمها قسوةُ المُستقبل ويبقى الزمنُ هو الفيصلَ الوحيد بين المأمولِ والمكتوب، استفاقَ وأدَّى صلاةَ الفجرِ ثم جلسَ إلى حاسوبِه ثانيةً، الكلماتُ على مواقعِ التواصلِ الاجتماعي تتضاعَفُ كُلَّ لحظةٍ آلافَ المرات، تحذيراتٌ وتنبيهاتٌ قرَأها في تمَعُّن، همَّ بإشعالِ إحدى سجائرِه لكنه نظرَ إلى وجهِ محمد النائِم على السريرِ المقابل، الدخانُ حتمًا سيخنقه، صعدَ إلى سطحِ البِناية، تابعَ شروقَ الشمسِ في ترقُّبٍ ثمَّ نظرَ إلى عُلبةِ سجائرِه في سُخرية، تعجَّبَ من تلكَ الملعونة الصغيرة التي أدمَنَ دُخانها الذي يَحرِقُ عظامَه في الداخل، أفرغَ كُلَّ ما تحويه العلبةَ على الأرضِ ثم فرمَها بقدميهِ بصورةٍ بعثرت أحشاءها من التبغِ في جريمةٍ مُروِّعَةٍ سيقاضيه بسببها كُلُّ المدخنينَ في هذا الكوكب، أرادَ لهذا اليومِ أن يكونَ مُختلِفًا وأن يبدأه بشكلٍ جيد، نظرَ إلى السُّحبِ التي

تتهادى فوقه وتمُرُّ أمامَ الشمسِ كغُلالةٍ شفافة، سِربٌ من الطيرِ اختفى خلفها للحظاتٍ ثم عادَ للظهور في مشهدٍ هادئ، قائِدُ السربِ يستشكِفُ الأرضَ التي يُحلِّقونَ فوقها وهم يسيرونَ خلفه في طاعةٍ عمياء ثِقةً في خبرته، في المقابلِ تركَ لهم حريةَ تشكيلِ السرب على النحوِ الذي يُريدون، تارةً يأخُذُ السِّربُ شكلَ قَوسٍ يقوده هو وتارةً يكونُ شكلًا مُثلثيًّا يترأسه، تختلِفُ أفكارُ ورُؤى كُل فردٍ في السرب لكن دومًا الهدفُ واحدٌ، الطعام، المُحرِّكُ الرئيسي والدافعُ الفطري لأي عملٍ في هذه الدُّنيا، حطَّ القائِدُ على سطحِ إحدى البِنايات فتبِعُوه ببساطة في تتابعٍ مُنظم..

دارَ الحديدي بعينيْه في أسطُحِ البيوتِ والمباني التي تناثَرت فوقها أطباقُ الاستقبال وأبراجُ الحمام وأخشابٌ قديمة وأجهِزَةٌ مُستهلكة في فوضى رهيبة، اختلفت ارتفاعاتُ المنازلِ وألوانها لكنها رسمت مع بعضها لوحةً غايةً في الغموض، تُخفِي داخلها أسرارًا وحَكَايا لا تكفيها كلُّ أوراقِ وأقلامِ الدُّنيا آويةً بداخِلِها أفواهًا جائعةً وأنفُسًا خائفة وأجسادًا مريضة ورُبما

حانَ الوقتُ لتغييرِ هذا الواقع، هبط ثانيةً إلى البيت ليجد سمر تنتظِرُهُ كعادتها، نظرت إليه نظرةَ استغراب بعدما لم تلمح في يديهِ عُلبةَ السجائر وبدلًا من أن تسأله ألقَت بنفسِها بين ذراعيه فاحتوى جسدَها الضئيل بكُل جوارحه، رفعت إليه عينيْها الدامعَتينِ ووجهت إليهِ نظرةً تحمِلُ كُلَّ معاني الاستعطاف والرجاء ثمَّ استحلفته ألا يخرُج اليوم، لم يبقَ لها في هذه الدنيا سواه وهي لا تُريدُ أن تفقده كما فقدت أبويها، لم يُجبها بحرفٍ واحدٍ بل ضمَّها في قوةٍ أكثر كأنه يُطمئنها، يعلمُ حجمَ الخوفِ الذي يجتاحها ولا يعلُمُ كيفَ السبيلُ لإيقافه، لم يكن الأمرُ- من وجهةِ نظره - يستدعي كل هذا القلق، بدأت دموعُها في السريانِ فمسحها بإبهاميه، لم تكُن يداهُ تحمِلانِ رائحةَ التبغِ المُحروقِ كالمعتاد، طلبَ منها تجهيزَ طعام الإفطار قبلَ النزولِ لأداء صلاة الجمعة ثم دخلَ غرفتَه فوجدَ محمدًا نائِمًا على ظَهرِه شارِدًا موجِّهًا نظرَه إلى السقف فقالَ في سُخرية:

- صباح الخير يا حاج، إيه؟ فيه حاجه في السقف عاجباك؟ قوم يللا علشان نفطر وننزل نصلي..

لم يُجبه محمد وذِكرى الليلةِ الماضيةِ تتكرَّرُ أمامه بكُلِّ تفاصيلِها المريرة، تململَ قليلًا قبلَ أن ينهضَ من فِراشه ثم ذهب للاغتسال، أغلقَ الحديدي الغُرفةَ عليهِ من الداخل ثم أجرى اتِّصالًا هاتفيًّا، سمِعَتهُ سمر من خلفِ البابِ يحتَدُّ على الطرفِ الآخر وعِندما خرج كانت أماراتُ الغضبِ محفورةً في قسَماتِ وجهه، تناولوا الطعامَ جميعًا في صمتٍ تام كأنما على رُؤوسِهم الطير فبِرأسِ كُلٍّ منهم ما يشغلُه عن محاولةِ إثارةِ الحديث..

همَّا بالخروجِ للصلاة لكن سمر جذبت أخاها من ذراعِهِ واستوقفته، احتضنته ثم نظرت في عينيْه نظرةَ رجاءٍ أخير، تركها تُفرِغُ انفعالاتِها وابتسم لها ابتسامةً حانية ثم خرج مُغلِقًا البابَ عليها من الخارجِ بمِفتاحِه الخاص، في الشارع كان الجو صحوًا، نسماتٌ من الهواءِ البارِد تهُبُّ كُلَّ فترةٍ ما وتختلِطُ بآياتِ القرآن التي ترتفِعُ من مُكبراتِ الصوت فتصنعانِ مزيجًا يبعثُ في الأجسادِ رجفةً لذيذة، الشوارعُ شِبه خاليةٍ من السيارات فيما المارةُ يحمِلونَ على أكتافهم سِجاداتِ الصلاةِ

الصغيرة تحسُّبًا لعدمِ وجودِ مكانٍ شاغرٍ داخلَ المسجدِ أو بُغيةَ الجلوسِ في الخارج تلمُّسًا لدفءِ الشمس، خلعا حذاءيهما وعبرا باب المسجد، استشعرَ مُحمد شيئًا غريبًا في عيونِ الشباب الذين امتلأت بهم جنباتُ المسجد، أدَّيا صلاةَ تحية المسجد وارتكنَ الحديدي بظهرِهِ إلى أحدِ الأعمدة فيما جلسَ محمد القرفصاء إلى جواره، ارتفعَ صوتُ الأذانِ بِجلالٍ فانخفضت الرؤوسُ في خشوع، ارتقى الخطيبُ المِنبَرَ وبدأ في إلقاءِ خطبةٍ حثَّ فيها الجميعَ على العملِ من أجلِ رِفعةِ الوطنِ ووَحدَتِه وحذرَّهُم من الانسياقِ وراءَ دعاوى التفرُّق، ارتسمت ابتساماتٌ ساخرةٌ على وجوهِ الشباب لكنهم ظلوا على صمتِهم كلٌّ يعتمِلُ بقلبِه وعقلِهِ ما يعتمل، بعدما انتهت الصلاةُ مُباشرةً قامَ الحديدي سريعًا إلى حِذائِه فتبعه مُحمد في آليةٍ ثم وقف ينظرُ للجموعِ الغفيرة التي تخرجُ من المسجد كأنما تتكاثرُ بداخله وتلتحِمُ بالحشودِ الأُخرى التي قدِمَت من المساجدِ القريبة، شدَّ الحديدي ظهرَهُ في اعتدادٍ وقال لمُحمد في صرامة:

- دايمًا خلي عينك عليا، أنا مش هبقى مركز معاك، لو حصل حاجه متفكرش فيا وروح البيت على طول..

اندفعَ الحديدي وسطَ الحشودِ قبلَ أن يسأله مُحمدٌ عن ماهيةِ الحدَث ثم رفعَهُ أحدُ الشبانِ على كتِفَيهِ، صوتُهُ الجهوري أشعلَ الحماسَةَ في الحشودِ فانطلَقت حناجِرُهم تُردِّدُ هُتافَه الصادِم: "الشعب يُريد إسقاط النظام"، زئيرٌ وُلِدَ من رَحِمِ الخنوع مُمَزِّقًا مشيمةَ الجُمود فارتجَّت بصداه جنباتُ المدينة، حلَّ الغضَبُ محل الدمِ في عُروقِ الشبان، مُظاهراتُهُم يومَ الثلاثاءِ الماضي أقضَّت مضجعَ النِّظامِ الحاكم، غضبَةٌ في وجهِ الظُّلمِ والفسادِ والقهرِ والقمع وهَبَّةٌ من أجلِ إيجادِ ما يسُدُّ رَمَقَ الجوعى في الشوارع وثورَةٌ مِن أجلِ تحريرِ الأفكارِ في العقول والمُعتقَلينَ من السجون وانتِفَاضَةٌ من أجلِ عدالةٍ هي مِلكٌ لهم لكنَّ القوانين الجائرة صادرَتها وألقت بها في غياهِبِ النسيان حتى أصبحت العدالةُ تَرفًا لا يحُوزُهُ سِوى عليةِ القومِ دونَ غيرِهِم من المظلومينَ الفُقراء، كُلما مَرُّوا برَمزٍ للنظامِ الحاكم أسقطوه حتى وصلُوا إلى مقرِّ أمانَةِ الحِزبِ الوطني، المكانُ الفِعلي

الذي تُنهَبُ من خلالِه مُقدراتُ المُحافظة، لم تكُن في صدُورِهِم تلكَ الرهبة المعتادة تجاهه، الغريبُ أنه لم يكُن محاطًا بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الحِراسة حتى أبوابه المُغلقة فُتِحَت أمامهم بسهولةٍ أكثر من المتوقع، بدا أنَّ النظامَ الحاكمَ ضحى بهِ من أجلِ أن يُفرِغَ هؤلاء الشبابُ شُحنَاتِ غضبِهم فيه لكنَّه لم يضع في حُسبانِهِ أنَّ هذهِ الشحنات لم تكُن لتفنى بمُجَردِ اشتعالِ للنيران في مبنىً جامدٍ فالغضَبُ أعتى بكثيرٍ مما تخيل أيُّ رُكنٍ من أركانِ النظام، وصلت الجُموعُ إلى مبنى المُحافظة حيثُ يختلفُ الموقفُ تمامًا في ظلِّ تواجُدٍ أمنيٍّ مُكثَّف، رتلٌ من العرباتِ المُصفحةِ أحاطَ بالمبنى واعتلَتهُم جُنودٌ لوَّحُوا بأسلحتِهم في غطرَسةٍ واضحة، اصطفَّ عساكِرُ الأمنِ المركزي بِطُولِ جانبَيِ الشارع المؤدي إلى المبنى مُتَحصِّنينَ بدروعِهِم البلاستيكيةِ الشفافة وشاحِذِينَ هَروَاتِهم السوداء الغليظة انتظارًا للأوامرِ من أجلِ سَحقِ هؤلاءِ الأطفال الذينَ اجترَأوا على المُطالبةِ بإسقاطِ النظام، لم ترتجف ذرةٌ في قلوبِ الفتيةِ بل زادتهُم نظراتُ المقتِ تِلكَ إصرارًا على المُضيِّ قُدُمًا

في طريقِ ثورِتهم الولِيدة، ارتفعت وتيرةُ الهُتافاتِ أكثرَ حتى زلزَلت المبانيَ الشاهقةَ المُحيطةَ بهم وارتفعت حتى عنان السماء فاستَحَت أمامَ لهيبِها حرارةُ الشمس حتى ارتفعَ صوتُ النِداءِ الخالد مُعلِنًا دخولَ وقت صلاة العصر فرَاحَت ذاكرةُ الحديدي تسترجِعُ الأحداثَ مُنذُ بِدايتِها..

في الخامسِ عشر من يناير بدأت الدعاوى في مصر عبرَ مواقعِ التواصُلِ الاجتماعي لتنظيمِ مسيراتٍ واحتجاجاتٍ مُماثِلَةٍ لما حدَث في تُونس خِلالَ الشهرِ الفائِت وأجبرَت الرئيسَ هُناك على الهربِ من البِلاد، لاقَت الدعاوى صدىً واسعًا وتجاوُبًا صريحًا يُطابِقُ ما تهفو إليهِ القلوبُ منذُ سنوات، حددت المواقعُ والصفحات يومَ الثُلاثاء الخامس والعشرين من يناير ميعادًا لبدء تلك الاحتجاجات، نجحَت الوقفاتُ الأولى في لَفتِ أنظارِ المسئولينَ إلى جِدِّيَتِها فعَقَدُوا العزمَ على تِكرارها يومَ الجُمعةِ بقُوةٍ أكبر وبضجيجٍ أصدح وبِدَويٍّ أعنَف، بُعِثَت الحياةُ مِن جديدٍ في جسدِ المارِدِ الذي وصَفوه بخائرِ القُوى فراحَ يتمَلْمَلُ

في قُمقُمِهِ نافِضًا عنهُ غُبارَ اليأسِ وهادِمًا الخوفَ الذي قبَرُوهُ فيه مُنذُ عقود..

رانَ الصمتُ على المكانِ حتى ليُسمَع صوتُ نبضاتِ القُلُوب، استقبَلَ الفِتيةُ القبلةَ واصطفوا في صفوفٍ متوازية، جُعِلَت لهم الأرضُ على اتِّساعِها مسجِدًا وطَهُورا، أخفَضُوا رؤوسَهُم في حَضرَةِ الإلهِ الواحِد في خشوع، سجَدَت جباهُهُم وأنُوفُهم على الأسفلتِ المُلتهِب وقلوبُهم بينَ يدي خالِقِهم تجأرُ إليهِ بالشكوى، شحنتهم سجداتُهُم بالعزمِ اللازِمِ لمُواصَلَةِ الكِفاح، بكت العُيونُ واختلَطَت عَبَراتُها بالترابِ وارتفعت الأَكُفُّ في ضَرَاعَةٍ تستسقي النصر، انتهوا من صلاتهم وعادوا لهُتافاتِهم بقُوَّةٍ أكبر، "ثورة ثورة حتى النصر، ثورة في كُل شوارِع مصر" حتى صارت الساعةُ الرابعةَ والنِصف، تواتَرَت الأنبَاءُ عن اجتماعاتٍ بين القياداتِ الأمنية تُراقِبُ الموقِفَ المُتَوتِّر وسطَ تعتيمٍ إعلاميٍّ حولَ ما يجري على الأرض، قلَلَت أبواقُ الإعلامِ المحسوبةُ على النِّظام من شأنِ حركَةِ الاحتِجاجَاتِ الأقوى في تاريخِ البلاد واتهمت الداعِينَ إليها بالعمالَةِ لدُولٍ

معادية وصوَّرَتهُم على أنَّهُم شِرذِمَةٌ مِن مُثيري الشغَبِ والفوضى يُنفِّذونَ مُخططاتٍ أجنبية لزعْزَعَةِ الاستقرار الذي تحياهُ مِصرَ، معَ مغيبِ الشمس هدأ الموقفُ إلى حدٍّ ما لكنه كان هدوءَ ما قبلَ العاصِفة، تحركَت العرباتُ المدرَّعَةُ وأشهرَت فُوهَاتِ مدافِعِها في وجوهِ المُحتجين فتوَجَّست نفُوسُهم خِيفَةً وسرَت موجاتُ التوترِ بينهم، أحاطَ الفِتيةُ بالفتياتِ وطلَبُوا مِنهُنَّ الانصِرَافَ من أحدِ الطُّرُقِ الجانبية، لم يكُن الموقفُ يحتمِلُ مُجردَ التفكيرِ فضلًا عن الرفض فانصعن للطلَبِ في حُزن وبدأن في التحرك في نفسِ اللحظةِ التي صدرت فيها الأوامِرُ بفضِّ المُظاهراتِ بالقُوة، رفعَ الفِتيَةُ أيديَهُم الخاليةَ أمامَ العرباتِ المدرَّعَة وهتفوا "سِلمية، سِلمية"، لكنَّ أبوابَ الجحيمِ لم تعبَأ بسِلمِيَّتِهِم تِلك وانفتَحَت في وُجُوههم على مِصرَاعَيها، انهمَرَت قنابِلُ الغازِ المُسَيلِ للدُموعِ كمَطَرٍ مِنَ الجَمرِ المُلتهِب، تكسَّرَت مِئاتُ النوافذِ الزُجاجية في المباني المُحيطة واقتحم الغازُ المنازِلَ على حينِ غرَّةٍ من قاطِنِيها، صوتُها عِندَ الانطِلاقِ يصمُّ الآذانَ لكِنها لم تُزعزِعْ ولو

بالشيء اليسير إيمانَ الفِتيةِ بعدالةِ قضيتهم، راحُوا يُلَملِمُونَها كما يُلملِمُ الأطفالُ ألعابَهم ثم رَدُّوها إلى مُرسِلِيها ببساطةٍ فهبطت عليهِم كِحِجارَةٍ من سِجيل، تعبَّأَ الجوُّ تمامًا بالغازِ الخانِق، يعمَلُ الغازُ المسيِلُ للدموعِ على تَهييجِ الأنسجةِ المُخاطِيةِ في الأنفِ والفمِ والرِّئَتين فتتمَدَّدُ تِلكَ الأنسجةُ لاحتواءِ أكبرَ قدرٍ مِن الأُكسجين لكنَّ الغازَ يصِلُ إليها بدلًا منه فيزدَاد العذابُ الذي يشوي الوُجوُه ويُلهِبُ العيونَ ويُمَزِّقُ الصُدور، امتزجَ صوتُ السُّعالِ بصوتِ قذائِف الخَرطوش والألمُ بالأمل، بعضُ قنابِلِ الغَازِ سقطَت على أسلاكِ الكهرباء فقطعَتها مُصدِرَةً قرقَعَاتٍ مُخيفَةً وانعدمَت الرُّؤيَةُ تمامًا، امتدت أيدي البعضُ في عفَويَّةٍ إلى الحجارةِ وألقتها تجاه قواتِ الشُّرطة، كانت السِّلمِيةُ في هذا الوقتِ بالنسبةِ لهُم إغراقًا في المِثاليةِ خاصةً أنَّ عدوَّهُم لم يتورَّع عن إمطارِهِم بالرصاصِ المطاطي والحي، بعثَ الموتُ صقُورَه لتحُومَ فوقَ الطرفَينِ المُتشابِكَينِ مُتحينَةً الفُرصَةَ لالتقاطِ رُوحٍ هُنا أو نَفْسٍ هُناك، دامت المواجَهاتُ لمُدَّةِ الساعة ما بينَ كَرٍّ وفَرٍّ من الطرفِ

الأعزلِ الذي لا يحمِلُ سِلاحًا سِوى الإصرار الذي يملأَ كُلَّ خَليَّةٍ فيجَسدِه مُسَطِّرًا تاريخًا جديدًا يُنهِي بهِ عقودًا من الخُضوعِ والاستسلام، فجأةً توقفَ الجنودُ عن إطلاقِ قنابِل الغاز والرصاص المطاطي فظنَّ الشبَابُ أنَّ ذخيرَتَهم قد نفدَت، تقدموا أكثرَ ناحيةَ السياراتِ التي تقهقَرَت أمامَهم ثم انسحبَت تمامًا في مشهدٍ ضاعَفَ حماستَهم آلاف المرات، سِناجُ المطاطِ المُحترِق خنَقَ الهواءَ بالكامل لكنهُ لم يستطع كتمَ صيحاتِ الفرح التي انطلقَت من حلوقِهم مُنتَشينَ بهذا النصرِ السريعِ الذي لم يتوقعوا أن يكُونَ بهذِهِ السُرعةِ والسهولة فهل كان النِّظامُ هشًّا على عكسِ الصورةِ التي كان يرسمها إعلامُه لدرجةِ أنه لم يصمُد سوى ساعاتٍ قليلةٍ أمامَ هؤلاءِ الفِتيةِ العُزَّل؟..

لأولِ مرَّةٍ منذُ اندِلاعِ المُواجهات تذَكَّرَ الحديدي ابن خالته مُحمد فأجرى الاتصال به، حاولَ عِدةَ مراتٍ لكنَّ شبكة الاتصالاتِ كانت مقطوعَةً عن المِنطَقةِ بأكملها، أمامَ مبنى المُحافظةِ رَاوَدَتهُ الأفكارُ عن الأسبابِ التي دفعَت قُواتِ الأمنِ

للتخلِّي عن المبنى وتركِهِ فَرِيسَةً سهلةً بينَ أيدي الثائِرين، لم تطُل تساؤلاتُه كثيرًا ففي نهايةِ الطريق ظهرَت الإجابَاتُ سَريعًا، هجمَةُ الشُّرطَةِ مُنذُ قليلٍ لم تكُن سِوى الموجةَ الأُولى التى يَشُنُّها النِّظامُ الفاسِدُ عليهِم فالموجَةُ الثانيةُ الآخِذةُ في التَكَوُّنِ والتي تستعِدُّ للهِجُومِ ستكُونُ أعتى بكثير، جُموعٌ من الهَمَجِ والبلطجيةِ يدُقُّونَ الأرضَ بأقدامِهِم ويُلَوِّحُون بأسلحتهِم البيضاء من بعيد، لا طاقةَ للفِتيَةِ بهذهِ الجُموع فأغلبُهُم طلبةُ جامعاتٍ وحمَلَةُ مؤهِلاتٍ عُليا لم يحمِلْ أيٌّ منهُم سِلاحًا أبيض قط كما أنهم ليسُوا مُدرَّبينَ على الدفاعِ عن أنفُسِهِم مما يُنذِرُ بمذبَحَةٍ رهيبةٍ في عرضِ الشارع، اقتربَ البلطجيةُ أكثرَ لكنهم لم يتجِهوا ناحيةَ الثائِرين بل اتجهوا إلى البِنُوكِ والشركَاتِ المُحيطةِ بمبنى المُحافظة وأعمَلُوا سيُوفَهم ومطارِقَهُم في أبوابِها وواجِهَاتِها وسطَ غِيابٍ تامٍ للشُّرطة، حطَّموا ماكيناتِ صَرفِ الأموال وكاميراتِ المُراقبة، أموالٌ عامةٌ وخاصةٌ نُهِبَت بمنتهى البساطة، حملت دراجاتُهم الناريةُ أجهِزةً كهربائية وحواسِبَ آليةً بدُونِ أدنى رادِعٍ أو مُقاومة، حتى

المحال الصغيرة البائِسة وأكشاك بيعِ السجائرِ المُجاوِرة لم تسلَم من بطشِهم ثم رحلَوا بغنائِمِهم بعدما أحدثُوا تلكَ الفوضى الرهيبة..

تمزَّق قلبُ الحديدي وقلبُ كُلَّ من تابعَ المشهدَ المُروِّعَ، أحَسُّوا بألمٍ رهيبٍ بعدما عجَزُواعن دَفعِ هذا الاجتِيَاحِ الهمجي فلم يكُن هذا أبدًا ما تمنُوه في بدايةِ اليوم، دنَاءَةُ النِّظَامِ ووضاعتُه فاقَت كُلَّ التصورات، أدارَ الحديدي وجهَه وهو على وشكِ البُكاء ثُم سلَكَ أحدَ الشوارِعِ الجانبية، غرِقَت قدمَاهُ في مُستنقَعٍ مِن المِياهِ الناضِحَةِ من إحدى البالوعَاتِ المفتوحة وأزكَمَت رائِحَتُها الكريهةُ أنفَه تمامًا، وصلَ إلى مُنتصفِ البركةِ ونظَرَ بعفَويةٍ إلى مَدخَلِ المبنى السكنِي على يسَارِه، وقفَت فتاتان في رُكنِه المُظلِم تُراقِبَانِ الشارِعَ في حذَر، ربُما تختبئان حتى تزولَ الموجةُ الهمجيةُ التي شنَّها البلطجية، أشفَقَ عليهما من الرُّعب الذي يملأ قلبيهما، منذ بدأت الدعواتُ إلى التظاهراتِ كان ضِدَّ تواجُدِ الفتيات في الشارع لأنهُ يُعرضهنَّ لمخاطر لا داعي لها فالفتيةُ قادرونَ على الصُّمُودِ أكثرَ مِنهنَّ والركضِ إذا لزِمَ

الأمر، ودَّ لو أنهُ يستطيع الانتظارَ معهما لكن ليس من الحِكمَةِ أبدًا أن يقِفَ وحده مع فتاتينِ في أحدِ الأركانِ المُظلمَةِ حتى لو كان بهدَفِ حمايتهما وقد تخافاه إذا اقترب منهما؟ تضاعَفَ شعورُه بالعجزِ داخله أكثر وأكثر ثم واصَلَ طريقَه في ألمٍ لكن صوت إحدى الفتاتَينِ مُناديًا باسمِهِ اخترقَ قلبَه كالسهمِ المسمومِ فتسمَّرَ في مكانه كتِمثَالٍ من الرُّخام، أدارَ وجهَه ببُطءٍ شَديدٍ ناحيتها بينما ما زالت أذُناه تُترجِمان الصوتَ لِعَقلِهِ الرافِضِ للتصديق، خرجت الفتاةُ من دائِرةِ الظلامِ إلى بَصيصِ الضوءِ الذي تسلَّلَ على استحياءٍ إلى الشارعِ الضيق، وقفَت على حافةِ الرصيفِ تفرُكُ يديها في عصَبية، اتجه إليها في خُطواتٍ آليةٍ، لم يعبأ بالمياهِ العَطِنَة التي تسللت إلى حذائه وأغرقت حافةَ بِنطالِه من أسفل، نظرَ إليها بطريقةٍ عَصفَت بكيانِها بالكامل فانعكسَ ذلك على عينيها الزائِغتين، قبل أن تنطِقَ بأيِّ حرفٍ أمسكَ بعضُدِها بمُنتهى القسوة فتأوَّهَت في ألمٍ لكنَّها لم تُحاوِل انتِزَاع ذِراعها من قبضته، صرخَ في وجهِها بمنتهى الغضب:

- هو أنا مش قلت متنزليش؟ إيه اللي خلاكي تنزلي؟ انطقي!..

لم يُبالِ للموقِف الذي يُحيطُ بِهم ولا بالبيوتِ المُحيطة بل لم يُبالِ بألمِها هي نفسها، لم تُجبه وبدأت البُكاءَ في صمت، شدَّدَ قبضتَه أكثر بدونِ أن يشعُر حتى كادت أطراف أصابعه أن تخترقَ لحمَها لتُحطِّمَ عِظامَها من الداخل، رفعَت عينيها الغارِقَتينِ في الدمُوعِ ونظَرَت إليه وقالت:

- مقدرتش أفضل في البيت والناس كلها في الشارع، وبعدين صاحباتي كلهم نزلوا اشمعنى أنا يعني منزلش؟..

زادَته كلماتُها تِلك غَضبًا على غضب، أمسَكَ عضُدَها الآخر بيدِهِ الأُخرى ثم هزَّها بقوةٍ صارِخًا في وجهها بكُل انفِعالِ الدُّنيا:

- متنزليش علشان أنا قلت متنزليش..

مُتَأوِهَةً في ألَمٍ شديد كاد يُفقدها الوعي قالت:

- على فِكرَة دي أول مرة تلمسني، أول مرة تلمسني فيها توجعني..

- أنا بتكلم في إيه وإنتي بتتكلمي في إيه؟ أنا قلت متنزليش ونزلتي، يعني محترمتينيش، مين فينا بقى اللي وجع التاني؟ انطقي..

أطرقَت رأسها ولم تُحِر جوابًا، أفلتَها من قبضتيه فاقتربت منها صديقتها وضمتها إلى صدرِها مُهوِّنَةً عليها، أدارَ ظهرَه وقال في حسم:

- امشوا ورايا علشان أوصلكم البيت..

سارتا خلفَه في طاعةٍ عمياء، كان قلبُها مُحطمًا، أخطأت لكن عِقَابه لها يفُوقُ بكثيرٍ فِعلتها تلك، هل هُناك عِقابٌ أقسى من ألا ينطقَ اسمها؟ تنظُرُ في عينيهِ فلا تجِدُ فيهِما سوى الغضب خاليَتَينِ من أيةِ عاطفةٍ ناحيتها، لأولِ مرةٍ وقفَت شخصيتُها العنيدةُ أمامَ أمرٍ له، اعتادت مُنذ أحبته ألَّا تعصي لهُ أمرًا، طاعتها له ليست وليدةَ حُبِّها وإنما لثقَتِها فيهِ وفي رَجاحَةِ عقله وحُسنِ نواياه أكثر مما تثِقُ في نفسِها، فالحُبُّ هو أن تثِقَ في من تُحب أكثر من ثِقتِكَ في نفسِك إيمانًا مِنكَ بأنهُ لن يقومَ بفعلِ

شيءٍ يُسيء إليك فلماذا تمرَّدَت اليوم على هذهِ الثقة؟ لماذا ضربَت بأمرِه عرضَ الحائِط وقررت النزول على غيرِ رغبَتِه؟..

سارَ بخطواتٍ منتظمة ناظِرًا خلفَهُ كُلَّ حِينٍ ليطمئِنَ أنهما ما زالتا تقتفيانِ أثَرَه، ترفَعُ عينيها الذابِلتينِ من البُكاء إليهِ كُلما حانت التفاتتُه لكنه لم ينظُر إلى وجهِها قط وكان هذا يقتُلُها أكثر، الشوارع خلت تمامًا من المارةِ رُغمَ أنَّ الساعةَ لم تتجاوز السابعةَ بعد، الأنباءُ عن المناوَشَات وانتشارِ البلطجية أجبرَ العامةَ على التِزامِ منازلهم وأغلَقَت المتاجِرُ أبوابَها، كان يختارُ أوسعَ الطُّرُقِ وأقصرَها مُتجَنِّبًا المُظلِمَةَ منها، قبل أن ينعطِفَ إلى الشارعِ الذي تسكُن فيه عادَ إليهما، ظنَّت أنه سيُسامحها لكنه لم يُوجِّه حديثَه وإنما سألَ صديقتَها عن مكانِ إقامَتِها فأخبرَته أنها تسكُن في نفسِ المبنى الذي تسكُنُه علياء، أومأ برَأسِه ثم أكملَ طريقه أمامَهُما حتى وصلتا إلى باب المنزل، توقفَت قليلًا علَّهُ ينظُرُ إليها لكنه لم يفعل واستكملَ طريقَه يتأرجح عقلُه بينَ الغضبِ لأنها عصَت أمرَه والأسف

لأنه أمسكَ بذراعيها، ليسَ مِن حقِّهِ أن يمسَّها تحتَ أي ظَرفٍ من الظروف مهما كانت درجة حبه لها ومهما كانت ثقتها فيه، أعادَ ترتيبَ أفكاره منذُ البِداية، طلبَت مِنهُ النُزولَ في بدايةِ الأمر فرَفَضَ تقدِيرًا للأحداثِ المتوقعة وحدَث أسوأ مما توقع مما يؤدي بالتبعيةِ إلى كونِها أخطأت، زرَعَ هذا الموقِفُ أشجارَ القلقِ بداخله لم يتخيل أنها قد تنمو يومًا من الأيام، أمسكَ هاتفَه واتصلَ بها، سمِعَ صوتَ الرنينِ لمرةٍ واحدةٍ فقط ثم أنهى الاتصال، تراجع عن الحديثِ إليها فمهما كان خطؤه بتعنيفِها بهذه الصورةِ كبيرًا فهو لا يساوي أبدًا عِصيانها لأمرِه وتعريض حياتها للخطر.. وصلَ إلى شارعِهِ ووجَدَ مُحمدًا جالِسًا على الرصيفِ أمام المنزِل فسأله:

- إيه يا ابني، واقف هنا من إمتى؟ ومطلعتش فوق ليه؟..

أشارَ مُحمد إلى أعلى، وقال:

- عايزني أطلع فوق وإنت مش معايا؟ إنت عايز يجيلها سكتة قلبية لما أطلع وإنت مش معايا؟..

ابتسمَ الحديدي مُستَحسِنًا صُنعَ ابن خالته ثم ارتقيا درجات السُّلَم، قبلَ أن يعبر الحديدي الباب إلى الداخل أتت سمر وأثرُ البُكاءِ يُبلِّلُ وجهَها الرقيق ثم ضربت أخاها في صدرِه بكُلِّ قوةٍ لكنه لم يتأثر بضرباتها حمَلَها بكلتا يديه كالطفلة الصغيرة فنظرت في عينيه نظرةً فيها كُل الخوف والشوق والحُب والغضب، طوقَت عُنقَه بيديها وأطلقَت لدموعِها العنان حتى هدأت ثم قالت:

- حرام عليك يا أخي إنت بتعمل فيا كدا ليه؟ اتصلت بيك كتير موبايلك مقفول وكأنك عايز تموتني من الخوف عليك..

أنزَلَها ثم أخرجَ شيئًا من جيبه وقال:

- أقفل موبايلى ليه يا هبله إنتي؟ يا بت كانوا قاطعين الاتصالات في المناطق الحيوية في البلد كلها، بس أنا بردو هعرف أصالحك..

مدَّ إليها قطعةَ شيكولاتة من النوعِ الذي تُفضِّلُه، تبدَّلَ وجهُها وحلَّت فرحةُ طِفلَةٍ صغيرةٍ محَلَّ دموعِ عينيها ثم انتزعتها من

يديهِ انتِزاعًا، أدارت ظهرها إليه وهى تفتحُ غلافَ قطعةِ الشيكولاتة، ثم قالت:

- بردو لسه مخاصماك..

انطلق صوتُ هاتفِه عدَّة مرات فهمَّ بفَتحِ الباب، اندفعت سمر حائِلةً بينه وبين أخيها ثم قالت في عصبية:

- رايح فين تاني؟ الدنيا بقت كُحل..

- إيه يا بت إنتي؟ طالع السطح..

عاودَ هاتفُهُ الرنينَ فأدارَه إليها حتى تستطيعَ قراءةَ الاسم الذي يظهَرُ على شاشته، اقتربَ حاجباها من بعضيهما وقالت:

- بردو؟ طيب..

- هو إنتي مش هتعقلي بقى؟..

تركَ البابَ خلفَه مفتوحًا حتى تتأكد أنه صعَدَ إلى أعلى، ظلَّت واقِفَةً تُفكِّرُ في هذهِ التي استأثَرَت بقلبه، تغَارُ منها إلى أبعدِ

مدى، تُحِبُّ أخاها ولا تُريدُ أن يشغلَ غيرُها تفكيرَه، هي نفسها أقفَلَت قلبَها عليه، لم تستجب ولو للحظَةٍ واحدةٍ لأيِّ شابٍ تقرَّبَ منها في الجامعة، ضربَت حِصارًا على قلبِها فباؤوا جميعًا بالفشل حتى ظَنوا أنها فتاةٌ منغلقةٌ منطوية وكانت صديقاتُها يتَهِمنها بالجنون لأنَّ حبها لأخيها مُبالَغٌ فيه ويتعدى حدَّ المعقول..

في الأعلى ذهبَ إلى أقصى زاويةٍ في السطح ثم أجابَها:

- آلو، أيوه يا آنسة..

آنِسة، كم تكره هذهِ الكلِمة، تمامًا ككلمَةِ حضرتك عندما ينطقها بلَهجةٍ رسمية، كلماتٌ تبني مئاتِ الأسوارِ والحواجزِ بينهما في لحظة فتشعُرُ أنها غريبةٌ عنه، ابتلعت الكلمةَ بمَرارَةٍ كما يبتلِعُ الطفلُ كبسولةَ الدواء، أخذَت نفسًا عميقًا، ثم قالت:

- إنت مبتردش على طول ليه؟ بقالي كتير برنلك..

- معلش، كنت لسه داخل البيت حتى لسه مغيرتش هدومي، خير؟ فيه حاجة؟..

- حديدي، فيه إيه؟ متعملش فيا كده، أنا آسفة ومعترفة إني غلطانة، خلاص بقى..

- آسفة؟ آسفة إيه؟ أصرفها منين دي؟..

صمتت قليلًا لتسمحَ لهُ أن يُفرِغَ شُحناتِ غضبِه دفعةً واحدةً لكنه لم يسترسل، صمتَ مُحاوِلًا ترتيبَ أفكاره وبعد لحظاتٍ قال بهدوءٍ يُحسَدُ عليه:

- علياء، عارفه أنا زعلان ليه؟ علشان سمعتي كلام نفسك وخليتيه لأول مرة يغلب كلامي ليكي، مع إنك واثقة مليون في المية إني مبطلبش منك تعملي حاجة على حساب شخصيتك، كلامي كله مبني على أساسين اتنين ملهمش تالت، حُبي ليكي وخُوفي عليكي، أنا آسف إني مسكت إيدك ووجعتك، آسف، بس في عِزّ ثورتي دي مكنتش أقدر أطبطب عليكي، إنتي لو

جرالك حاجة محدش هيطبطب عليا ساعتها، لأني ساعتها هموت يا علياء..

أخفَضَت رأسَها وكأنها واقفةٌ أمامَه الآنَ كتلميذٍ يستمِعُ لتعنيفِ أُستاذِه ولم تجدْ الكلماتِ المُناسبةَ للردِّ عليه، سألَها عن كُلِّ ما مَرَّت به منذ خرجَت من المنزلِ إلى أن قابلَها قصَّت عليه كُلَّ شيء حتى تعنيف أبيها عندما تأخرت في العودةِ منذ قليل، تردَّدَ السؤالُ المُعتادُ في ذهنها، متى سيأتي إلى أبيها طالِبًا زواجَها حتى يُخلِّصَها من هذه العُزلةِ التي تحياها في هذا البيت؟ أبُوها وإخوتُها الذكور يعتبرونَها مُجرَّدَ طفلَةٍ صغيرةٍ لا يُقيمون لها وزنًا، كُلُّ أهميتِها بالنِسبةِ لهم هي مساعدةُ أُمِّها في شئونِ البيتِ عِلاوَةً على خِدمتهم، تُعِدُّ الطعامَ لهذا وتغسِلُ ملابِسَ ذاك، بينما أمها - التي من المُفترَضِ أن تكُونَ الأقرب إليها - غيرُ مُدرِكَةٍ بعدُ أنَّ ابنتها قد شبَّت عن طوقِ المُراهقة وأصبحت في أمَسِّ الحاجَةِ إلى من يحتويها ويستمِعُ إلى مكنونِ صدرِها، كم كان القدرُ رحيمًا بها عندما بعثَ بهِ إليها فملأَ الفراغَ الذي تحياه، ترى فيهِ مُنقذَها الذي سيُخرجها من

هذا المنزلِ الذي أصبحت تعمَلُ فيهِ كالجاريةِ بلا كَللٍ أو هوادة، قرأَ أفكارَها فقال:

- يا علياء أنا كمان نفسي نتجوز بسرعة، بس مش هقدر أدخل بيتكم من غير ما يكون معايا شُغلانة أأكلك منها عيش وإلا ساعتها أبوكي هيطردني..

استمعت إليه دونَ أن تُجيب، لديهِ الحقُّ فيما يقول لكن إلى متى ستظَلُّ مُنتظِرة؟ تأرجَحت أحاسيسها ما بينَ البلادةِ والاحتراق، يشعُرُ تمامًا بكُل هذه الدوامات التي تُحيطُ بعقلها لكن ليس بيدهما شيء سوى الصبر، الرُّكن الركين الذي يستنِدُ إليهِ الحُبُّ في هذا الزمان..

2

أسبوعانِ مرَّا والبلادُ على صفيحٍ ساخنٍ تمامًا كمنزِلِ الحديدي، كُلما تجَهزَّ للنزولِ في مظاهراتِ أيامِ الأحد والثلاثاء والجمعة صرخت سمر في وجهه وتظَلُّ على بُكائها المرير حتى يعودَ إليها في المساءِ مُنهكًا حتى كانت تلك الليلة التي دخلت فيها عليهِ غُرفتَهُ فوجدَتهُ يُعِدُّ حقيبةَ الظَهرِ الخاصة به، وضعَ بهاعباءة والده السوداء وبعضَ مُتعلِقاته الشخصية، نظرَت إليه في استغراب فضمَّ رأسَها إلى صدرِه كأنما يكتُم تساؤلاتِها، ضمتهُ هذه لم تُهدئ من روعِها بل زادَتها قلقًا على حيرة، نزعت رأسَها من بينِ ذِراعيه وصوبَت أولَ أسئلتَها ناحيةَ عينيه مُباشرةً:

- رايح فين؟..

كانت الأمورُ جَلِيَّةً واضِحةً كشمسِ الظهيرة لكن رُبما الحقيقةُ يكونُ لها وَقْعٌ أعنف عندما تُلفَظ، بدونِ مجرد تفكيرٍ أو أدنى مواربةٍ أجابَها:

- التحرير..

رددت في ذهول كمَن ذهبَ عقلها:

- التحرير؟!..

تابعَ إعداد حقيبته فصرخت:

- إنت مش شايف الناس اللي بتموت؟ إنت ليه يا أخي عايز تسيبني لوحدي في الدنيا دي؟ مش كفاية أبوك وأمك سابونا؟..

وضعَ راحتَهُ اليُمنى على فمِها ليمنعَها من الاسترسالِ في الكلامِ الذي لا تعِيه، سالت دموعُها على يديه فضمَها ثانيةً، وقال:

- إياكي أبدًا تقولي الكلام دا تاني، أبوكي وأمك مسابوناش، دي إرادة ربنا، وأنا كمان مش عايز أسيبك ولا حاجة، بس إنتي عارفة إني كان نفسي إن البلد تتغير وإن الثورة تقوم من زمان فمش يوم ما هتقوم الثورة هقعد في البيت يا سمر..

- ما أنت بتنزِل هنا عند المحافظة، هنا زي هناك..

- يا سمر الثورة بجد اللي في الميدان، ليها طعم تاني وأنا عايز أدوقه فأرجوكي متحرمينيش منه..

كمطرَقةٍ ثقيلة هوت فوقَ رأسِه باغتَهُ سؤالُها الجديد:

- قلت لعلياء؟..

نظرَ إلى عينيها مُندهشًا، لم يتخيل هذا السؤالَ منها أبدًا فعلياء بالنسبةِ لها مُنافسةٌ على قلبِه وآخِرُ أُنثى على وجهِ الأرض قد تهتَمُّ بعلاقتِها به، بدا وأنها تستعينُ بتأثيرِ علياء عليه فأرادت أن تضعَهُ بين شِقَّي الرَّحى، أخته وحبيبته..

ردَّ مُشيحًا بوجهه عنها:

- مقلتلهاش ومش هقولها..

- إشمعنى مقلتلهاش؟ خايف تزعلها لما تعرف إنك رايح التحرير؟ شاطر توجع قلبي أنا بس لكن هي لا؟..

"يا الله"، قالها وهو يزفُرُ من أعماقِ قلبه، حتى في هذِه اللحظةِ لا تنسى غيرتَها، إنهُنَّ الفتيات، الاستئثارُ بالشيء هو شُغْلُهُنَّ

الشاغِل دونَ أيةِ اعتبارات للموقفِ أو التوقيت، كُلٌّ منهما ترى نفسَها أحقَّ بهِ من الأُخرى، ظلَّت تنظُرُ إلى عينيهِ في تحدٍّ تُوشِكُ على تصديقِ نفسها، لو لم يُجبْها فورًا برَدٍّ قاطعٍ مُقنعٍ ستُصَدِّقُ أنَّهُ يخافُ على مشاعِر حبيبتِه أكثرَ من خوفِه على مشاعرِها هي وسيخسَرُ ثِقتَها إلى الأبد، اقتربَ منها وأمسكَ بكتفيها ثم نظرَ في عينيها مُباشرةً، وقال:

- طبعًا مش هخاف على مشاعرها أكتر منك، إنتو الاتنين عندى زي - ضغطَ على الكلمةِ بقوة - بعض بالضبط، بس أنا مقدرش أنزل من البيت كده وأسيبك عادي من غير ما تشوفيني، هتتجنني وأنا مرضالكيش الجنان - يبتسم - لكن هي مش شايفاني وسهل جدًّا أخبي عليها وأقولها إني هنا مش هناك، فهمتي؟..

لم تبتلع الردَّ الذي لم يُقنعها، لاحَ في عقلِها شيء ما اعتبرَته حبلَ نجاتِها الأخير..

- خلاص سافر إنت وسيبني لوحدي في الشقة من غير ما يكون حد معايا خصوصًا في الظروف اللي إحنا فيها دي ولا فيه أمن في البلد ولا أي حاجة، وحد ييجي يكسر عليا الباب ويموتني علشان ترتاح وتروق لحبيبة القلب..

ضحكَ وهو يدفعُها إلى غرفتِها، فتحَ دولابها، وقال:

- ومين قال إني هسيبك لوحدك؟ جهزي هدومك علشان هنسافر البلد دلوقتي، محمد ابن خالتك مستنينا عالمحطة، يللا ربع ساعة وتكوني جاهزة..

في الطريقِ إلى محطةِ القطار لم تستجب لمُحاولاتِهِ لإثارَةِ الحديث ولم تبتسم لدُعابَاتِهِ التي حاولَ بها تغييرَ حالتها المِزاجية، مع تحرُّكِ القطار انطلقَ رنينُ هاتفه، نظرت إليه في تحدٍّ وهي تستَمِعُ إلى الرنينِ الخاصِ برَقمِ علياء مرةً بعدَ مرة وهو لا يُجيب، يعلَمُ أنَّ كُلَّ مرةٍ لا يُجيبُ علياءَ فيها يتضاعَفُ قلقَها ألفَ مرةٍ وما زالت سمر تُسدِّد نظراتها القاسيةَ إليه، نظراتٍ تتهمُهُ فيها بالجُبنِ أمامَ علياء بينما كان قويًّا فقط أمامها

وهي التي تُحِبُّه أكثرَ من حبيبته، أصابَه الرنينُ الذي استمرَّ طويلًا بالتوترِ فانتزَعَ بطاريةَ الهاتف ثم ألقاها من نافذةِ القطار دونَ تفكير، رِدةُ فعلِهِ كانت مُبالغًا فيها بالنسبةِ لمُحمد الجالِسِ أمامه، تلكَ المرةُ الأولى التي يرى فيها ابن خالته يفقِدُ أعصابَه بسهولةٍ وبدون سببٍ يستدعي ذلك، لم يعلم قدرَ الضغوطِ التي يُكابِدُها الحديدي بداخِلِه، خوفُه على أُخته وقلقُّه على حبيبته والموازَنَةُ بينهما بالإضافةِ إلى سَفرِه هذا وأشياء أخرى لا أحد يعلمها سواه..

اقتربَ القِطارُ من المحطةِ فنهضَ مُحمد وحمَلَ الحقيبة، حاولَ الحديدي مُصافحةَ أُخته لكنها رفضت ثم توجَّهت إلى الباب، تطَلَعَ مُحمد إلى ابنِ خالته وسأله:

- هو إنت مش هتيجي معانا وللا إيه؟..

بنبرةٍ تملؤها السُخريةُ المريرة أتاه الجوابُ من خلفِ ظهره، من سمر التي لم تنبس بحرفٍ واحدٍ منذُ أن استقَلوا القطار:

- هو كمان مقالكش؟ الظاهر إنه مبقاش يقول أي حاجة لأي حد، لا مش هييجي معانا..

صافحه الحديدي في قوة وقال له:

- خلوا بالكم منها كويس يا محمد، وأنا إن شاء الله لما أوصل هشتري بطارية جديدة وهكلمكم..

- ماشي يا صاحبي، توصل بالسلامة..

تعانقا ثم هبط مُحمد من القطار وسارَ إلى جوارِ سمر على الرصيف فيما كان الحديدي يُراقبها، تمنى لو أنَّها ترفعُ عينيها إليه وتُلوِّحُ له مودِعةً لكنها لم تفعل، ظلَّت تنظرُ إلى الأرضِ حتى غادرَ القِطارُ المحطة ومعهُ غادرَت دموعُها محبسها، انهمرت رقراقةً صافيةً ولمعت على خديها الأسمرينِ كغديرَي ماءٍ عذب، تسلل صوتُ بكائِها المكتوم إلى أُذنيْ مُحمد فسبَقَها بخُطواتٍ معدودة كي يُعطيها حريتَها في التَنفِيثِ عن لهيبِ صدرِها دونَ حرَج، لم يتبادَل معها حرفًا واحدًا حتى وصلا

إلى المنزلِ حيث كان الجميعُ في انتظارِهما، ضمتها خالتُها إلى صدرِها في حنان فيما ما زالت عيناها مُبتلَتين بالدموع..

الفَصْلُ التاسع

لو عِلمنا كيفَ ستكونُ النهاياتُ ما كانَ للبِدايات معنى

1

نظرَ إلى هاتفه الذي خبا ضوءُ الحياةِ منه، انفعاله اللامحسوب حين انتزع البطارية كان عنيفًا، لعلَّ عقله الباطن هو من أملى عليه هذا الفعل ترضيةً لأخته، أراحَ رأسه إلى الخلف وأغمض عينه وراح يُفكر في علياء، يتخيلها الآن تدورُ في غُرفتها كالمجنونة، تضغطُ أزرار هاتفها في عصبية فتُجيبها السيدةُ ذات الصوتِ البارد "الهاتف الذي تُحاول الاتصال به ربما يكونُ مُغلقًا"، ثم تُشيرُ عليها بنصيحتها الأكثر سخافة "من فضلك حاول الاتصال في وقتٍ لاحق"، يعلمُ أنها لن تنام ولن يهدأ لها بال حتى يُجيبها، احتلَّ القلقُ كلَّ خليةٍ من عقلها وقلبها وفعلَ بهما الأفاعيل حتى ظهر اسمه على هاتفها في الحادية عشرة مساءً، ظلت مُحدِّقةً في الهاتف في شرود كأنها لم تستوعب بعد أنه هو المُتصل، لم تُجبهُ على الفور، هل تُحاول أن تُذيقَه بعضًا مما أذاقها؟ سخرت من نفسها فمثله لا يشعُرُ أبدًا بالقلق، أتاها صوتُه مُعتذرًا ومُتعللًا بأنه كان خارج المنزل وأن بطارية هاتفه قد فرغت ولم يستطع الاتصال بها حتى عاد

لكن الضوضاء من حوله كذّبت عودتَهُ المزعومة، عندما اطمأنت أنه بخيرٍ تغيرت طبيعتها إلى النقيض تمامًا من القلقِ عليه إلى الغضبِ منه، نعتته بقسوةِ القلب واتهمته بعدمِ احترامِها ثم أنهت الاتصال فجأة، هنا فقط يُمكِن لقلبها أن يهدأ، لم يُصبه سوء وهي لا تُريدُ أكثرَ من ذلك، تعلَمُ أنه بعدَ قليلٍ سيتصِلُ بها مُعتذِرًا ومُحاوِلًا استرضاءها فتتقمَّصُ دورَ الغاضبةِ بعضًا من الوقتِ ثم تعودُ الأمورُ إلى طبيعتها تمامًا مثل المراتِ الخمسين السابقة..

لم يُحاوِل مُعاودةَ الاتصال بل وضعَ الهاتِفَ في جيبه ببساطةٍ وسارَ في طريقِه إلى الميدان الذي يقع على مرمى بصره، تِمثالُ الفريقِ عبد المنعم رياض يقِفُ شامِخًا على رأسِ الشارع يُراقِبُ الداخِلينَ إلى الميدانِ وكأنه يستحِثُهم على المُضي قُدمًا في طريقِ الحُرية، وجَّه نظرةَ عِتابٍ إلى التمثال لأنه لم يستطِع الوقُوفَ في وجه البلطجية الذين هاجموا المُحتجينَ يوم الأربعاء الماضي -الثاني من فبراير- مُمتَطِينَ أحصِنَتَهم وجِمالَهم مُخلِّفينَ عشراتِ القتلى والجرحى فيما

عُرِفَ تاريخيًّا بموقعةِ الجمل، مرت ثمانيةُ أيامٍ على المذبحة وما زالَ الأسفَلتُ مُضرَّجًا بالدماءِ ينتظِرُ القصاصَ من القتلة، مرت جُمعتان مُنذُ بدءِ الاحتجاجات، الغضبُ والرحيل وغدًا ستكُونُ الجُمعةُ الثالثة، وقفَ عِندَ حاجِزِ التفتيش على حدودِ المِيدان، ابتسمَ في وجهِه أحدُ القائمينَ على الحِراسةِ وطلبَ منه بِطاقةَ التعريفِ الشخصيةَ فناولها له ببساطة، فتَّش حقيبتَه ثم سمحَ له بالولوج، مع دخوله ارتفعَ صوتُ المُذيعِ الشهيرِ من مُكبراتِ الصوت في جَنَباتِ المِيدان مُعلِنًا عن بيانٍ جديدٍ لِرَأسِ النِظام يُوجِّهُهُ لعمومِ الشعب، تجمهَرَ الجَميعُ بالقُربِ من المنصةِ الرئيسيةِ أمام شاشةِ عرضٍ كبيرة، تعالت همهماتهم ما بين مُستبشرٍ بقُربِ سقوطِ النِظامِ آملٍ بأن يكونَ هذا هو البيان الأخير وما بين مُترَقِّبٍ حَذرٍ يشعُرُ أنَّ السبعةَ عشرَ يومًا الماضية ليست كافيةً بعدُ لإزاحةِ هذا النظام الذي جثَمَ على صدورِ المصريينَ لأكثر من ثلاثين عامًا، بعدَ لحظات أطلَّ وجهُ رأسِ النظامِ المقيت، وجهٌ يحمِلُ كلَّ مَلامحَ الخُبثِ والمكر، أماراتُ الشيخوخةِ تنضَحُ من كُل قسمةٍ من قسماتِ

وجهه، بدأ خِطابَه الخبيث بالترَحُّمِ على الضحايا الذين سقطوا جرَّاء السياسات القمعية لأجهزتِهِ الأمنية في الأسبوعينِ الماضيين مُتناسِيًا الآلاف الذين ماتوا خلال عصرِهِ إما مُحترقينَ في القطارات أو غرقى في البِحار والنيل أو صرعى على الطرقات أو تحت أنقاض عقاراتهم أو مرضى بمُختلف الأمراضِ المُزمنة أو تحت وطأةِ التعذيبِ في المُعتقلات والسجون في ظلِّ حُكمِهِ الذي اتسمَ بالفسادِ والإهمال، أبَانَ عن خُطَطِه للتعديلِ في موادِ الدستورِ وتغنَّى ببطولاتِه المجيدة ومجهوداتِه الحثيثة في سبيلِ هذا الوطن وتأسَّف لما يُلاقِيه من - القِلَّةِ - من أبناءِ وطَنه فيما الأغلبيةُ الكاسحةُ تعرِفُ حقيقةَ نواياهُ الطيبة، لَعِبَ على وترِ العاطفةِ التي تملأ قلوبَ هذا الشعب الذي أنهكَه بالفقرِ والجهلِ والمرض، رفعَ البعضُ أحذيتَهم في وجهه كأنما يقولونَ لهُ إنَّ خطاباتِكَ العاطفية ووعودَكَ الزائفة لن تُؤثِّرَ فينا بعدَ الآن، مللناها طيلةَ ثلاثة عُقودٍ ذاقت فيها البلادُ ويلاتِ العَوزِ والفاقةِ والعجز، ارتفعت الهتافاتُ من جديد بمقتٍ أكبر وعَزمٍ أقوى، "ارحل، ارحل،

ارحل"، انتهى من خطابِه الذي سلَّم فيهِ بعضًا من اختصاصاتِه لنائبه، شعرَ الحديدي أنَّ الخطابَ كان لقياسِ مدى ثباتِ المُحتجينَ في الميدان، هل سيمضُونَ في طريقِ ثورَتِهِم المجيدة أم سيستجيبون لهذا الخِطابِ العاطفي ويسمَحونَ له بخروجٍ آمنٍ بعدَ تسعةِ أشهرٍ هي الفترةُ الباقيةُ من مُدَّتهِ الرئاسيةِ الحالية وكأنَّ ما أفسدَهُ نظامُه من مؤسساتٍ وأجهزةٍ وذِمَمٍ وضَمائر على مدارِ الثلاثينَ عامًا سيكونُ قادِرًا على إصلاحِهم في تلك الأشهُرِ التسع، يبدو أنَّ النِّضالَ سيستمرُّ لمدىً أطول لا يعلمُه إلا الله..

أجرى الحديدي اتصالَه بعلياء فوجدَ هاتفها مُغلقًا كما توقع، أجرى اتصاله بمُحمد واطمأنَّ على أُختِهِ ثم تحدثَ إلى خالته أحلام التي أقسمَت عليه أن يكونَ حذِرًا وحريصًا على نفسِه قدرَ المُستطاع، تحركَ إلى المناطقِ الخلفيةِ بحثًا عن أفضل الأماكن المُمكنَةِ للمبيت وسطَ كلِّ هذه الخيام التي اكتظت بها أرجاءُ الميدان، تحلقَت مجموعةٌ بجِوارِ خَيمَةٍ يُردِّدونَ أغاني وطنيةً قديمة وأنصتت مجموعةٌ أُخرى في انتباهٍ إلى رجُلٍ

يُلقي قصيدةً ثوريةً حماسيةً لشاعرٍ راحِل، لم يكُن للثورةِ قائدٌ يُحرِّكُها بل كانت فِكرَةُ الثورةِ هي التي تُحرِّكُ العقولَ وتشحَذُ الهمم، وجدَ مكانًا صالِحًا للنومِ على الحشائش الخضراء في أحدِ الشوارعِ الجانبية، نامَ على ظَهرِه ثم التحفَ بعباءَةِ والده، رائحةُ أبيهِ والذكرياتُ المنسوجةُ مع خيوطِها أمدتهُ بالدفءِ المطلوب وأذهبت عنه برُودَةَ فبراير..

مع شعاعِ الشمسِ الأولِ استيقظ، سمِعَ زئِيرًا لمجموعةٍ من الشبابِ يدورونَ حولَ المِيدانِ في حماسٍ ونشاطٍ كبيرين كأنهم يقومونَ بعملياتٍ إحمائيةٍ استعدادًا ليومٍ جديدٍ من أيام كفاحهم السلمي ورأى مجموعةً أُخرى تجمَعُ القِمامةَ من أرضِ الميدان، في الحادية عشرة والنصف أقامَ الأقباطُ قُدَّاسًا تغنوا فيه بعظَمَةِ مَصرَ وتاريخها ثم تبعَتهُ خطبةُ الجمعة حثَّ فيها الخطيبُ الجميعَ على الصمود والثبات والاعتصامِ بحبل الله وعدم التخلي عن مطالِب ثورتَهم الوليدة، انتهت صلاةُ الجُمعة ثم أعلنت المنصةُ عن صلاةِ الجِنازةِ على جُثمانِ الفريقِ أول سعد الدين الشاذلي رئيس أركان القُواتِ المسلحة الأسبق

وصاحب خُطة "المآذن العالية" الاسم الحركي لخُطّةِ حربِ أكتوبر المجيدة، الرَّجلُ الذي أذاقَ إسرائيلَ أقسى هزيمةٍ في تاريخِها وتُدَرَّسُ خُططُه الحربيةُ في أكبرِ المعاهدِ العسكرية على مستوى العالم، الرجلُ الذي ظلمَه الرئيسان المُتعاقبانِ وأمعنا في التنكيلِ به فنفياه إلى خارجِ البِلاد وصادرا مُمتلكاته ومؤلفاته وعندما عادَ إلى مصر وضَعُوه قيدَ الإقامةِ الجبرية حتى توفاهُ اللهُ في العاشر من فبراير بدونِ أي إشعارٍ في الإعلامِ الرسمي وكأنه مجهولٌ من نكراتِ الزمان، اقشعَرَّ بَدَنُ الحديدي لمهابة الموقف، أكثر من مِليوني إنسان اصطفوا للصلاةِ على جُثمانِ الفريقِ الراحل وكأنها إرَادةُ الله لتكريمِ وتشريفِ هذا الرجل الذي أفنى السوادَ الأعظمَ من حياتِهِ في الدفاعِ عن تُرابِ هذا الوطن فكانَ جزاؤهُ النفيَ والإبعادَ والإذلال، فقط لأنَّ آراءه الحربيةَ والسياسيةَ ناطحت أطماعَ رؤوسِ الأنظمةِ الفاسِدة، بعدما انتهت الصلاةُ شقَّ زئيرُ المُتظاهرينَ حُجُبَ السماء: "ارحل، ارحل"، بعد صلاةِ العصر تضاربت الأنباءُ حولَ اجتماعِ المجلسِ العسكري وقياداتِ

الجيش بدونِ الرئيس، إرهاصاتٌ هنا وتنبؤاتٌ هناك بشأنِ البيانِ الذي أُعلِنَ عنه منذُ قليل، في تمامِ السادسة كان البيانُ الذي تصدَّرَ شاشاتِ النقلِ الحي والمباشِر في جميعِ أرجاءِ البِلاد، صمتٌ رهيبٌ خيَّم على المكان، توقفَ الشبابُ عن الحديثِ والسائِرونَ عن المشي والباعةُ الجائلونَ عن الإعلانِ عن بضاعتِهِم حتى القطط التي كانت تلهو في الأنحاءِ توقفَت عن المُواء، تسمرت الأجسادُ وتركزَت العيونُ وأنصتت الآذانُ وارتجفت القلوبُ أمام الكلماتِ البطيئةِ التي ألقاها نائِبُ الرئيس، أعلنَ الرئيسُ تنحِّيه عن حُكمِ البِلاد وأوكَلَ مَهمَةَ الحُكمِ المؤقت إلى القيادةِ العامةِ للقواتِ المُسلحة، انفجرت الدموعُ من الأحداقِ ولهجت الألسنةُ بحمد الله، انطلقت حلوقُ السيداتِ بالزغاريد فيما صرخَ الرِّجالُ بالفرحةِ العارِمة، آلافُ الألعابِ الناريةِ انفجرَت في سماءِ القاهرة وفي كُلِّ رُبوع مصر، سجَدَ الحديدي في مكانِه بين يدي ربِه، لم يكُن يتوقع انتصارًا سريعًا كهذا ففي ثمانية عشر يومًا فقط سقطَ النظامُ وتهاوى أمام صلادةِ هؤلاء الفتية وعزيمَتِهم، اهتزازُ هاتفِه في

جيبِه نبهَهُ من فرحته وأتاهُ صوتُها يحمِلُ كُلَّ ألوانِ البهجةِ والفرح:

- مبروك يا حبيبي، ألف مبروك، ربنا استجاب لدعائنا، أنا مش مصدقة نفسي لحد دلوقتي، مقدرتش أمسك نفسي وقعدت أعيط..

- ألف مبروك على مصر كلها يا علياء، ربك مبينساش دم المظلومين، أكيد الشهدا فوق مبسوطين دلوقتي، الحمد لله..

- الحمد لله يا حبيبي، إيه الدوشة اللي حواليك دي؟ إنت عند المحافظة في الاحتفال؟ هلبس وهنزل أنا وماما علشان أشوفك من بعيد وأفرح معاك في اليوم دا..

- لا يا حبيبتي أنا مش عند المحافظة..

- مش عند المحافظة؟! بس أصوات الفرحة حواليك عالية جدًّا..

صمتت قليلًا، تشابكت جميعُ الخيوطِ أمامَ عينيها بدايةً مُنذ يوم أمس، عدم رده عليها لمُدةٍ طويلة وإغلاقُه لهاتفِه، حديثُه معها دومًا عن رغبتِهِ في الذهابِ إلى التحرير وقضاءِ يومٍ من أيامِ الثورةِ هناك، تكشَّفَت الحقائقُ جليةً الآن، سألته في تردُّد:

- حديدي، إنت في التحرير؟..

كانت خائفةً أن يَصْدُقَ حدَسُها وودَّت لو أنهُ يقولُ لا، صمت قليلًا وبعدَ شهيقٍ عميقٍ أجاب:

- أيوه يا علياء أنا في التحرير..

أضاعَ عليها فرحةَ اليوم، ألم يُقِم الدُّنيا ولم يُقعِدْها لأنها خرجت دونَ إخبارِه مُنذُ أسبوعَينِ فكيفَ بهِ يذهَبُ إلى أتُّونِ الأحداثِ دون أن يُخبرَها؟ فكرت مَليًّا في طريقةِ ردِّ فِعلِها، هل تكونُ عصبيةً مثلما كان أم تمتصُّ عَصَبيتَها وتؤجِّلُ هذا الحديثَ لما بَعد؟ آثَرَت الثانية ولم تنفَعِل، فُوجئَ بهدوئها فداعبها:

- لو كنت أعرف إن الثورة هتعقلك كده كنت دعيت ربنا تقوم من زمان، عارفة يا بت؟..

- نعم؟..

- بحبك..

ابتسمت في خجل، شعرَت لأولِّ مَرةٍ أنها مُختلفة وأنه أيضًا كذلك، بالهدوءِ استطاعت أن تتجَنبَ خِلافًا وشيكًا يحرِقُ الأعصاب وهو أيضًا لاحظَ ذلك، عاهَدَ نفسَه وعاهدَها على مُصارَحَتِها بكُلِّ شيء بعدَ الآن إن ظلَّت على تَعقُّلِها هذا فوعدَتهُ بدورِها أنَّها ستَزِنُ الأمُورَ برَويةٍ أكثر وأنها لن تَترُكَ نفسَها فريسةً للانفعالِ بعدَ الآن، لم يكُن هُناكَ أفضل مِن الأجواءِ المُحيطةِ حتى يبُثُّ كُلُّ مِنهما بعضًا من عِشقِه للآخر ثم أخبرَها أنه سيبقَى بالقاهرةِ أسبوعًا آخرَ لحُضورِ مُقابلَةِ عمل، بعدما انتهيا أتاهُ اتصالٌ من محمد وهو في قمةِ الحبور:

- حديدي، ألف بركة وحمد لله عالسلامة يا حاج، يا ريتك كنت رُحت هناك من زمان وخلصت الليلة بدري بدري..

- الله يبارك فيك يا محمد، مبروك على البلد كلها، المهم اسمع كلامي اللي هقوله وركز فيه كويس..

أنصتَ مُحمد لابن خالتهِ بكُل حواسه في ذهولٍ تام، اعتقدَ أنَّ الحديدي يَهذِي وأنَّ نشوةَ الانتصارِ أسكرَتهُ وذهبت بعقله، كان كلامًا يتعدَّى حُدودَ العقلِ والحِكمةِ بملايينِ السنينَ الضوئية كررَ الحديدي ما قالَهُ ثانيةً للتأكُّدِ من أنَّ مُحمدًا قد وعَى كَلَّ حرفٍ من كلامه ثُمَّ أنهى الاتصالَ وتركَ ابن خالته يُصارِع الجُنون..

2

تمدَّد جسدُها بلا أدنى حركةٍ على الأرضيةِ الباردة، مُنذُ ذلك اليوم المشؤوم صارت تنامُ على الأرضِ، ربما تُحاوِلُ التكفيرَ عن شيء من ذنبها بتعذيب جسدها ومجاهدته كنوعٍ من التوبة أو ربما حتى لا تستسلِمَ لراحةِ الفراش فتقِل بالتالي درجةُ حساسيتها تِجاه الخطر، تنامُ وعقلُها مضاءٌ باللونِ الأصفر على وضع الاستعداد، تنتظِرُ اليومَ الذي ستشنقها أمها بيديها فيه أو الليلةَ التي سينحرُ مُحمد عنقَها فيها، فمتى؟ إن كان الموتُ هو النهاية المحتومة لها فليُعَجِّلا به فعذابُ انتظارِ الموتِ أقسى آلاف المرات من الموتِ نفسه مهما كانت كيفيته..

من وسط أفكارها سمعت صوتَ رسالةٍ أتتها على هاتفها المحمول: "يا هند، أنا ثناء، إلحقيني وتعالي بسرعة أنا شكلي بولد"، لم يكُن الرقم هو رقم ثناء الخاص لكنها ردت على الرسالة بأخرى "هحاول آجي حالًا"، ثناء صديقتها وزميلتها في الدراسة في الأسابيع الأخيرة من فترةِ حملها، كانت قد

نسيتها في خِضَمِّ مشاكِلِها ولم تتذكرها إلا الليلة الماضية فقط عندما اتصلت سماح تستفسرُ عن أحوالها، كان غريبًا جدًّا أن تتصل سماح لأولِ مرةٍ منذ ما حدث في منزلها للسؤالِ عن ثناء وليس للسؤال عن هِند نفسها وكأنها ما عادت تعنيها في شيء، أخبرتها هند أنَّ ثناء على ما يبدو في أواخِرِ فترةِ حملها..

مسكينةٌ أنتِ يا ثناء، في سن الخامسة عشرة توشكينَ على وضعِ مولودكِ الأول وتجدينَ نفسَكِ مسئولةً عن أسرةٍ لكن بالتأكيد حالُكِ أفضلُ بكثيرٍ من حالي، أنا التي أصبحتُ عاهِرةً منبوذة، زلَّت قدماي في مُستنقعِ الرذيلةِ تحت غطاءٍ وهمي من الحُب، كم أحسِدُكِ على الحلالِ الذي تعيشينه فهو بالتأكيد أطهر ألف مرةٍ من الدَّنَسِ الذي أرفُلُ فيه..

ارتدت ملابسها وخرجت من غرفتها، جدتها ومحمود الصغير يفترشان أرضية غرفة المعيشة بينما سُعاد وسمر تتسامران في الشُّرفةِ الخارجية ولا وجودَ لأُمِّها كي تأخُذَ إذنها، صعدت

لأعلى وألقت نظرةً خاطفة، أبوها يُدخِّنُ بشراهةٍ كعادته لا يكادُ يعي ما حوله ولا أثر لأمها، سألت سعاد عن أمها فأخبرتها أنها ذهبت لزيارةِ صديقتها أم حسن، أعلمتها بأنها ذاهبةٌ إلى بيت ثناء التي تُعاني آلام المخاض، استنكرت سُعاد خروجها في هذا الظلام الدامس والطريق الموحِلة خاصةً أنَّ الشوارِعَ خلت تمامًا من المارة وأضافت أن أمها ما كانت لتسمحَ بخروجها في هذه الظروف مهما كانت المبررات، عللت هند إصرارها باستنجادِ صديقتها بها ثم خرجت، سارت في الظلام بسرعة مُستعينةً بإضاءةِ هاتفها الخافتة، حذاؤها الصغير كُل خطوةٍ يجمَعُ طبقةً جديدةً من الوحل فتضطرُ كُلَّ بضعِ لحظاتٍ للتوقف لتنظيف حذائها ثم تُعاوِدُ سيرها، يقعُ بيتُ ثناء على أطرافِ النصفِ الآخر من القريةِ التي تنشطِرُ إلى نصفينِ بواسطة ترعةٍ كبيرةٍ يُوازيها الطريقُ الرئيسي، وصلت إلى الجسرِ البدائي المصنوع من جذوعِ الأشجار والذي يربِطُ شطري القريةِ ببعضهما فوق الترعةِ الرئيسية، حكّت حذاءها بالأسفلت بقوةٍ حتى تتخلصَ من طبقةِ الوحل الجديدة، لم

تمنحها الإضاءة الصفراء على الجسرِ أدنى شعورٍ بالأمان، صوتُ حذائها على الألواح الخشبية للجسر صنعَ خلفيةً صوتيةً امتزجت مع الأجواءِ الماطرة المُظلمة وأكملتا المشهدَ المُخيف، لمحت على الناحيةِ الأخرى من الجسرِ امرأةً ترتدي رِداءً أسود بالكامل وتحمِلُ حذاءها بيدها، يبدو أنها خافت عليه من الوحلِ فآثرت أن تتسخ قدماها بدلًا منه، طريقةُ سيرِها تبدو مألوفةً لهند لكنها لا تعرِفُ أحدًا يسكُنُ في الناحيةِ الأخرى من القرية سوى صديقتها ثناء، سارتا في طريقيهما مُقتربتينِ من بعضيهِما وعِندَ المُنتصفِ تواجها، أفسحت هند الطريقَ للمرأةِ لكنَّ المرأة توقفت أمامها مباشرةً وكشفت عن وجهها، ألجمت المفاجأةُ صرخةَ هند واتسعت عيناها في رعب فالوجه الذي رأته كانَ آخِرَ وجهٍ تتوقعُ رؤيته على الإطلاق في هذه اللحظة، وجهٌ جامدٌ خلا من أيةِ انفعالات وأكسَبَهُ الظلامُ بُعدًا شيطانيًّا مُخيفًا، أكملَ صفيرُ الرياحِ التي حركت غطاء رأسها أركانَ المشهد الرهيب، بسرعةٍ خاطفةٍ دفعتها المرأةُ بكلِ قوتها نحوَ حاجز الجسرِ الخشبي المُتهالك، حاولت

هند التشبُّثَ بملابس المرأة لكنها لم تُفلِح، حاجزُ الجسر أيضًا لم يُسعفها فتهشمَ وسقطَ معها إلى أسفل، ارتطمَ جسدُها بالمياهِ البارِدةِ بمنتهى القوة، أطلقت صُراخًا بائِسًا لعلَّ أحدهم يسمعها فينقِذُها ضارِبةً سطحَ المياه مِرارًا بيديها، ذراعاها الواهنانِ لم يستطيعا قيادتها إلى أحد جانبيْ الترعة فقط أبقياها طافيةً للحظاتٍ أُخرى حتى خارت قواها، لم تستجب المياهُ الراكِدةُ لنداءاتِ غريزةِ البقاء التي أطلقتها الفتاة، انتفضَ الجسدُ الرقيقُ عدةَ مرات قبلَ أن تُفارِقَهُ روحُه إلى الأبد تاركةً إياهُ يغوصُ ببطءٍ إلى مستقرِّهِ الأخيرِ بينَ مُخلفاتِ القاع وعادَ الهُدوءُ من جديدٍ إلى سطح المياه العطِنَةِ القاتمة..

3

عادت أحلام من الخارج بعد ساعةٍ تقريبًا، أخبرتها سُعاد أنَّ هندًا ذهبت لزيارةِ صديقتها ثناء التي تُعاني آلامَ المخاض، لم يكُف فمُها عن توَعُّدِ الفتاة التي تأخرت جدًّا بالعقاب طيلةَ الليل ثم افترشت أرضيةَ غرفةِ المعيشةِ انتظارًا لعودةِ ابنتها التي لم تعُد، في الصباحِ الباكر طلبت من سُعاد الاتصالَ بثناء التي نفت قدومَ هند على الإطلاق، ارتدت أحلام ملابسها وانطلقت إلى مركزِ الشرطة لتُبلِغَ عن اختفاءِ ابنتها، هناك نصحوها أن تبحثَ عن ابنتها جيدًا في كُلِّ الأماكنِ الممكنة لأنه لم يمُر يومٌ كاملٌ بعد على اختفائها وإن لم تتمكن من العثورِ عليها يمكنها الحضور غدًا للبدءِ في إجراءاتِ البحث، عادت إلى المنزلِ وسطَ قلقٍ وتوترِ كُلِّ من فيه، عند الظهيرةِ أتاهم شُرطي طالبًا من أحلام أن تذهب معه إلى قسم الشرطة، هناك استقبلها الضابطُ المسئول ثم قادها الى غرفةٍ مُلحقةٍ بالمبنى، الغرفةُ خاليةٌ تمامًا إلا من سريرٍ متهالك تمدَّد فوقَه جسدٌ له نفسُ طولِ جَسدِ هند، قال الضابط بنبرةٍ هادئة:

- بعد ما خرجتي من عندنا الصبح بساعتين، جالنا واحد يقولنا إنه لقى جثة بنت في الترعة، شكينا إنها ممكن تكون بنتك فبعتنالك على طول..

تركزت نظراتُها على الجسدِ المُسجى تَودُّ لو أنَّ لعينيها القُدرةَ على اختراقِ الغطاء إلى ما دونه، اقتربَ الضابطُ من الجثةِ ثم أزاح الغطاء الأبيض ببطءٍ كاشفًا عن وجهها وسأل أحلام:

- هي دي بنتك يا أحلام؟..

كان وجهُ الجُثةِ شاحبًا أكسبَه الموتُ بياضًا غريبًا، تعابيرُ وجهِ أحلام تكادُ تجزمُ أنَّ هذه البنت لا تَمُتُّ إليها بِصِلة، كست الحيرةُ وجهَ الضابط، كان ينتظِرُ منها رِدةَ فعلٍ مختلفة عن جُمودِها هذا، فإما زفرةَ ارتياحٍ لو لم تكُن المتوفاةُ هي ابنتها أو صدمةً قاسيةً قد تُفضي إلى غيبوبةٍ لا تُفيقُ منها أو موت لو كانت الجُثةُ لابنتها لكنها لم تُحرِّك ساكنًا، اقتربَ الضابطُ ليتحسَّسها بعدما تصلبت كتمثالٍ من الشمع، هنا نظرت إليه وقالت في صوتٍ متحشرج:

- أيوه بنتي يا حضرة الضابط..

تضاعف استنكارُ واستغراب الضابطِ ألفَ مرة، لم يخبروه من قبل أنَّ النساءَ في القُرى ذواتُ بأسٍ إلى هذا الحد، لم تتكون دمعةُ واحدةٌ في إحدى عينيها بل لم يبدُ أنها تأثرت على الإطلاق وكأنَّ الأمرَ لا يعنيها، طلبَ منها مرافقته لاستكمالِ الإجراءات، جلست أمامه في شرودٍ وتثبتت عيناها كأنها لا تُبصِر، قال الضابط وهو يقلِّبُ في الأوراقِ:

- تفتكري إن بنتك ممكن تكون وقعت غصب عنها من فوق الجسر يا ست أحلام وللا نكشف عليها علشان نشوف إذا كانت وفاتها ليها طبيعة جنائية..

لم تكن تُريد أن يتمَّ تشريحُ الجُثةِ خوفًا من افتضاحِ أمرِ ابنتها، أجابته بدون تردد:

- لا يا حضرة الضابط، بنتي لسه عيلة وملهاش أعداء نهائي وحتى لو فيه حد بيكرهها مفتكرش إن الأمر يوصل بيه إنه يقتلها..

- طيب عندِك معلومة توضحيها لنا بسبب خروجها في الوقت دا ولوحدها؟..

- كانت رايحة لصاحبتها علشان بتولد..

- يعني نقفل المحضر يا ستي؟..

أومأت برأسها إيجابًا ببطء دونَ أن تتفوه بحرفٍ واحد، أمر الضابط كاتبَه بإقفالِ المحضرِ على أنَّ الوفاةَ قدرية، أعطاها الكاتبُ قلمًا كي توقِّعَ فوضعت بصمتها وقامت من جِلستها، كادَ الفضولُ يقتُلُ الضابطَ فلم يستطِع منعَ نفسه من سؤالها:

- اعذريني يا ست أحلام في كلامي بس أنا مش حاسس إنك اتأثرتي نهائي وكأن اللي ماتت دي مش بنتك..

نظرت إليه مباشرةً في عينيه، وقالت في جمود:

- الحُزن حزن القلب يا حضرة الضابط، وأنا ست مؤمنة إن كل شيء متقدر ومكتوب ويمكن موتها خير، مين يعرف؟..

كادَ يصرخُ في وجهِها: "أنا حاسس من برودك دا إنك كُنتي بتكرهيها وبتتمني موتها"، لكنه حافظ على هدوئه وهو يطلبُ من أحد العساكر مرافقتها حتى تستخرجَ تصريحَ الدفن..

عندما عادت إلى المنزل كانت الحيرةُ تأكُلُ عقولَ النسوة، حماتها وسعاد وسمر حتى محمود الصغير تركَ ألعابه التي يلهو بها وتطلعَ الى أُمه في براءة، على عكس المتوقع كان سيد هو أول من سأل:

- إيه اللي حصل يا أحلام؟..

نظرت إليه نظرةً مقيتة؟ كادت تسأله ما الذي دعاك إلى الاستيقاظِ مُبكرًا يا سي السيد؟ هل فعلًا تذكرت أن لكَ ابنة رُبما أصابها مكروه؟ بل هل تتذكر اسمها أصلًا؟ لكنها أجابت:

- لقوها واقعة في الترعة الكبيرة..

اشرأبت الأعناق إليها في حيرةٍ ملهوفة فأدارت وجهها وجسدها بالكاملِ عن الجميع، وأردفت:

- ميتة..

صرخت سعاد صرخةً أسمعت القرية بأكملها، اتسعت عينا حماتها بشدة ودقَّت صدرَها بيدها، شهقت سمر ثم انهارت مغشيًّا عليها، سقطَ سيد أرضًا ووجهُه ينُمُّ عن شيء من الصدمة لكنه لم يذرِف عبرَةً واحدة بعدما أفقدت المخدراتُ قُدرةَ عينيهِ على تكوينِ الدموع، حتى محمود الصغير انفجرَ في البكاءِ عندما رأى رِدات الفِعلِ هذه..

الفصلُ الأخير

1

طوى الليلُ المنطِقةَ بأكملِها تحتَ جناحيه ومنعَ ضوءَ القمرِ من الوصولِ إلى أيِّ رُكنٍ من الشارع، أعمِدةُ الإنارةِ تواطأت فيما بينها على العطَبِ في نفسِ الوقت وفرضت النوافذُ الخشبيةُ حِصارًا على الأضواءِ الداخليةِ للبيوت فمنعتها من التسللِ إلى الخارج، القططُ النائمةُ بجوارِ جدرانِ البيوت على امتدادِ الشارع استيقظت على صوتِ خشخشةِ أقدامِ أحدهم، كان القادمُ من نهايةِ الشارع يترنحُ كمُصابٍ نزفَ كثيرًا يقاوِمُ السقوطَ، تحفزت القططُ وبدأت التجمُّعَ إلى جوارِ بعضها البعض، لم يبدُ أنَّ المترنحَ رآها أو شعرَ بها على الأقل، مرَّ من أمامها وعيناه تكادان تتدلَيانِ من رأسه، فجأة فزعت القططُ وانفرطَ عِقدُ تجمعها وذهبت كُلُّ واحدةٍ في اتجاهٍ ما فَمِن خلفِها تمامًا انفصلَ بروزٌ ما عن جدارِ أحدِ المنازل، بروزٌ التحمَ مع الجدارِ على مدى الساعتين الماضيتين فلما اقتربَ منه هذا الجسدُ المترنحُ استفزه ليبرحَ مكانه، حاولَ وليد تحريكَ أجفانه الثقيلة لتتسعَ أكثر حتى يتبينَ ماهيةَ هذا الشيء لكنها لم تستجب له، سأل في

عصبية "إنت مين؟"، لم يُجبْهُ البروز وإنما التف حولَه بسرعة، وضعَ يُسراهُ على فمِ وليد كي يمنعَه من الحديث ثم أخرج سِكينًا حادَّة من جيبهِ الخلفي في خفة ووضعَ مُقدمةِ نصلِها على صدرِ وليد أمامَ القلبِ مُباشرة، بصوتٍ أشبهَ بالفحيح همسَ المجهولُ في أذنِ وليد بكلماتٍ ما، بلغَ ارتياعُ وليد مداه وسقطَ الأسمنتُ من على أجفانِه فارتفعت حتى التصقت بحاجبيه، حاولَ الصُّراخَ لكن اليدَ القابضةَ على فمه وأدت صرختَه في مهدها، انتفخت أوداجُه وانفتحت مسامُ جِلده على مصارِعِها تطردُ العرقَ ولم تستطع طردَ الرُّعب معه، عبثًا حاولَ التشبثَ بأي شيء لكن اليدَ التي تُوجه السكينَ إلى قلبه ضغطته أكثرَ فتوقفَ عن المقاومة، استمعَ في رعبٍ جمَّدَ أوصالَهُ إلى صوتِ المُلثمِ فاستسلَم تمامًا لآسِره، كانت أمنيته في تلك اللحظة أن يعطيه هذا المجهول فرصةً أخرى للتكفيرِ عن جريمته لكن المُلثم لم يكُن على استعدادٍ للتفاوض، يبدو أنه جاء لتنفيذِ مهمته بدونِ استعدادٍ لسماعِ أي حرفٍ من هذا الحقير، بدونِ مقدماتٍ انغرزَت السكينُ في صدرِ وليد بمنتهى

القسوة، عبرت جِلده ولحمه واخترقت قفصَه الصدري شاقةً طريقها إلى القلب مُباشرةً، مزَّق نصلُها جدارَ القلب واقتحم بُطينيه من أسفل بلا رحمة، لم يسحب المجهولُ سكينَه من قلبِ وليد وظلَّ مُتشبثًا بها بكلِّ قوةٍ وغضب، اندفعَ الدمُ الأحمرُ الدافئ من القلبِ المُمَّزق وسالَ مُنزلقًا على قبضةِ مُحمد ليُطفئ نيرانَ قلبِه المستعرة، خارت قوى جسد وليد فأسجاهُ مُحمد على الأرضِ كجزارٍ يتجهَّزُ لنحرِ ذبيحتَه، لم يكُن مجرد انتقامٍ لنفسه ولشرفه فقط بل انتقامًا لأختهِ البريئةِ التي دنسها هذا الحقيرُ مُستبيحًا جسدَها فدفعت حياتها ثمنًا لخِسَّتِه وحقارته، حاولَ جسدُ وليد التمسُّكَ بروحِهِ التي بدت وكأنها تنتظِرُ هذا الخلاصَ منذُ زمنٍ بعيد، انفجرت الدِّماءُ من فمه وأنفه في وجهِ محمد لكنه لم يكترِث لها ولم يحاول مسحها، دماءٌ نجِسة تُطهِّرُ الرِّجسَ الذى عَلِقَ بشرفه، سحبَ السكينُ من صدرِ ضحيته بمنتهى البطء ودارَ حولَ الجسد ورفعَ رأسَهُ إلى أعلى قليلًا وبمنتهى البرودِ ذبح عنقه، اندفعت الدماءُ من بين لحمِ الرقبةِ المشقوق كنافورةٍ أُفقية، انتفضَ الجسدُ للحظاتٍ في تتابع

تنازُلي ثم سكنَ إلى الأبد، مزَّقَ مُحمد ثيابَ الجُثةِ التي انخفضت حرارتها شيئًا فشيئا، مسحَ بيدِه الدماءَ اللزِجة من فوق البطن ونقشَ عليها كلمةً من أربعِ حروف، "قصاص" ثم نظرَ إلى ذبيحته في رضًا تام، أتمَّ ثأرَهُ على النحوِ الذى أراد، ودَّ لو أنهُ يستطيعُ دعوةَ بعض الذئابِ إلى هذهِ الوليمةِ الطازجة، تلفَّت حولَه في حركةٍ غريزيةٍ مُطمئنًا إلى أنَّ أحدًا لم يره، فقط عيونُ القططِ اللامعة في نهايةِ الشارعِ هي التي تراقبُ الموقف، تركَ الجثةَ في عرضِ الشارِع ثم اتجهَ إلى منزلِ وليد، فتحَ البابَ الذي لم يكُن موصدًا بإحكام، نظرَ إلى جُثةِ سماح الغارقةِ في بحرٍ من الدماء وإلى جوارِها أمها المغشيِّ عليها، قتلَ الابن والابنة وتركَ أمهما تحيا بدونهما في جحيمٍ أبدي جزاءً لما فعلته بأمه، روت الدماءُ عطشَ غضبه حتى الثمالة، ألقى نظرةً أخيرةً على جُثةِ وليد وتفَلَ عليها، أعادَ لثامَه المُضَرَّج بالدماء وغطى به وجهه من جديد ثم تركَ رائحةَ الموتِ تَحُلُّ محلَّ الظلام..

التمعت عينا أحلام بشدةٍ كنجمتينِ متوهِّجتين عِندما أشارَ إليها بيدِه المخضَّبةِ بالدماء، لقد أُنجِزَت المهمةُ على أكملِ وجه وانتقمت من أم وليد وابنها وبنتها، تذكرت يومَ أن رأت ابنتها في غُرفةِ وليد، تذكرت حقارةَ أمه وهي ترعى علاقةَ ابنها الآثمة مع هند وتذكرت ليلةَ أن دفعت ابنتها من فوقِ الجسرِ الخشبي، لم تكُن هذهِ النهاية التي أرادتها لها عندما أنجبتها، كانت تتمنى يومًا أن تحملَ أطفالها وتُداعبَهم لا أن تحمِلَ ألمَ قتلها في صدرِها إلى الأبد، لم تكن تتخيل أنَّ حياةَ ابنتها ستنتهي على يديها في ظلامِ الليل في ماءٍ آسنٍ كأيِّ حيوانٍ نافق، تحسست الجُزءَ من عباءَتِها الذي مزقَتهُ هِند عندما حاولت التشبُّثَ بها، دوت صرخةُ هند في أذنيها من جديد واستعادَ عقلُها منظرَ عيني ابنتها الذاهلتين وهي تهوي في المياه، وقتها أخذت شهيقًا قويًا مُشبعًا بالهواء الذي دنسته جريمتها الشنعاء وتلفَتت حولها في حذر، لم يكن هناك سوى أشجار الكافور التي نكَّسَت رؤوسَها حتى لا تُشاهِدَ أُمًّا تُنهي حياةَ ابنتها، اطمأنت إلى أنَّ لا أحدَ يُراقبها من أي مكان

فخلعت جوربيها المُتسخينِ وألقتهما بجوارِ كَومةٍ من القُمامة ثم ارتدت حذاءها وعادت إلى المنزلِ كأنَّ شيئًا لم يكن، أخبرتها سُعاد بأنها حاولت إثناء هند عن الخروج لكنها لم تُفلِح، تصنَّعت الغضبَ وتوعدت هذه الفاسدةَ بقاسي العقاب، خلعت ملابسَ الجريمةِ وفي الصباحِ ذهبت إلى قسمِ الشُّرطة إمعانًا في إتقانِ المهمة، ظلَّت تكتُمُ كلَّ شيءٍ بداخلها حتى انتهت مراسِمُ العزاء ثم أخبرت ابنها بكُلِّ شيء ورسمت لهُ دورَه المطلوب وها هو قد أدى مهمته على النحوِ الأمثل كما أرادت تمامًا، آنَ الأوانُ ليهدأَ عقلُها ويطمئِنَّ قلبُها ويرتاحَ جسدُها..

دخلت إلى غُرفتها ثم استلقَت على سريرِها ونامت،

نامت إلى الأبد..

3

ما زالَ هاتفه مُغلقًا، راسلته عبر الفيس بوك لكنه لم يرَ الرسائلَ بعد، صارت كالمجنونةِ لا تنام، تُطالِعُ هاتفها في الساعةِ مائة مرة لعله يبعثُ إليها بشيء يُهدئُ جنونها ويُطفئُ هلعَها، أسبوعٌ مرَّ ولم يُرسِل أيَّ شيء وهو يعلمُ تمامًا كيفَ تكونُ حالتُها عندما تجهل مكانه..

رقمٌ غريبٌ يتصِلُ بها عدةَ مراتٍ ولا تُجيبُه رُغمَ أنَّ قلبَها يُحدثها أنهُ هو، أجبرها يومًا ما على القسمِ بألا تُجيبَ رقمًا غريبًا أبدًا، أتتها رسالةٌ من نفسِ الرقم "رُدي عليا يا علياء، أنا سمر"، بصوتٍ مبحوحٍ من شدةِ البُكاء أبلغتها سمر أن الحديدي سافرَ إلى إسبانيا بعدَ أن تحصَّلَ على مِنحةٍ للدراساتِ العُليا هناك وأقسمت لها أنها مثلها لم تكُن تعرف شيئًا حتى أبلغها قبلَ دقائق فقط طالِبًا منها أن تُخبِرَ علياء بالأمر لأنه لم يجدْ لديه القُدرةَ على إبلاغها بنفسه..

لو هزَمَ الرعدُ في أَذنيها لكان هزيمُه أهونَ عليها مما سمِعت، ولو سحقتها صاعِقةٌ وأحالتها عَدَمًا لكانَ أرحمَ بها مما تشعُر بهِ الآن، تباعدت الأشياءُ حولها وتضاءلَ جسدُها حتى قاربَ الفناء وابتلعتها هُوَّةٌ سحيقةٌ ألقت بها إلى قعرِ الجحيم، بدت لدقائق كتمثالٍ أصم في قلبِ كهفٍ مهجور، حركتها الصدمةُ نحو حاسوبها ففتحت صفحتها على الفيس بوك وبمِدَادٍ من لَظى صاغَت كلماتِها:

ما بالُكُم؟..

تُلقُونَ إلينا بقصاصاتٍ فيها أرقام هواتِفِكُم أو تدفعونَ صديقاتِنا لاجتذابِ اهتمامنا..

نصمُّ آذاننا عن معسولِ كلامِكِم ونُقاوِمُ طرقاتِكُم على أبوابِ قلوبنا..

نبلو صَبرَكُم ونختبِرُ صِدقَكُم، ننظُرُ من خلفِ الأسوارِ إلى مكامِنِ أعماقِكُم حتى إذا ما وجدنا في أنفاسِكُم بَصِيصًا من

الحُبِّ فتحنا لكُم أفئدتَنا على مصارِعِها وجعلناكم ملوكًا على عروشِها فتُعيدونَ تكوينها من جديد..

رويدًا رويدًا نثِقُ فيكم..

نُصدِّقُ عهودَكم ومواثيقَكم بأن حيواتنا معكم ستكونُ فرادِيسَ سعادة وجِنانَ حُبٍّ وحدائِقَ بهجة..

نُسافِرُ معكم إلى عوالِمَ ورديةٍ وآفاقٍ ملائكية، نُبحِرُ معكم في بحارِ العشقِ ونُحلِّقُ معكم في سماواتِ الوله..

نذوبُ على وقعِ قسمِكم بأنَّ ما يجمعُ قلوبنا بكم سيظَلُّ خالدًا أبدَ الآبدين وأنَّ انطباقَ السماواتِ على الأراضينَ لن يمحوَ أثره..

نرضى مِنكم بالقليلِ من كلامِ الهوى لأنه ينتَقِصُ من رجولَتِكُم على حدِّ زعمِكُم فيما نتقرَّبُ بهِ إليكُم آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار..

نقبَلُ ثوراتِكم ونمتصُّ غضبَكم سواءَ كان بسببٍ أو كالمعتادِ بلا سبب..

تنصِبونَ محاكِمَكُم وتُصدِرونَ أحكامَكُم، تُعِدُّونَ مشانِقَكم وتَسنُّونَ مقاصِلَكم إذا ما بدرت منا فقط بادِرةُ خطأ..

حتى إذا ما تملكتمونا وصِرنا كالجواري أمامَ عُروشِ رجولَتِكُم، ترحلون..

ترحلونَ عندما تكونونَ أنتم الخُبزَ والمِلحَ والماء، وتُغلِقون كُلَّ أبواب الحياةِ علينا وتتركونَ بابًا واحدًا على حافةِ الهاوية..

ترحلون هكذا، بلا سببٍ وبلا إشعارٍ بل حتى بِلا كذب..

أيها الراحلونَ لماذا رحيلكم دومًا يكُونُ عندَ قِمَّةِ تعلقِنا بكُم وعندما تكونُ دُنيانا قاصِرةً عليكم؟..

تُصِرُّونَ أن يكونَ رحيلَكُم قاسيًا، صادِمًا ومُفاجِئًا، كالإعصارِ الهادِرِ يسحَقُ الأشجارَ ويدهسُ الأزهار، يمحَقُ الأماني وينسِفُ الآمالَ في البحار، حتى إنه يَنزعُ الألوانَ من قوسِ قزح..

ترَكتُم قلوبَنا كالخِرَقِ الباليةِ أو كأعجازِ النخلِ الخاوية بعد أن كانت البلابِلُ على فروعِها المورقةِ تصدَحُ بحروفِ أسمائِكم..

ذبحتُم البسمةَ على شفاهِنا وأجريتُم العَبرَاتِ على وجُوهِنا، تركتُم اللوعةَ تحرِقُ أفئدتَنا وأطلقتُم الكَمَدَ يأكُلُ أكبادَنا..

رحلتُم بعد أن أضفتمونا إلى قوائِمِ ضحاياكُم التي تُبرِزُونَها في مقاهيكُم ومجالِسِكم، تُدخنونَ آلامنا وتَلُوكُونَ عذاباتِنا وتحْتَسونَ أوجاعَنا..

نركعُ ونجثو أمامَ الزمانِ كي يُنسِينا رحيلَكم ونُكَفكِفُ الدمعَ حتى نُفسِحَ الطريقَ لدمعٍ آخر ما زالَ في طورِ التكوُّنِ على شُطآنِ أجفاننا..

تمُرُّ الأيامُ والشهورُ والسِّنون تُحاوِلُ مداواةَ جروحِنا، تلتئِمُ أو هكذا نَظُنُّ..

حتى إذا نسيناكُم وارتحلت ذكراكُم عنَّا كما ارتحلتُم من قبل، عُدتُم..

عُدتم تغمِسُونَ أصابعَكُم في جراحِنا، وتُلهِبُونَ قلوبَنا بسياطِ الذكرياتِ التي قتلتموها أنتم..

عُدتُم تُذكِّرُونا بالأيامِ الخوالي والليالي الطِّوال..

عُدتُم تُذكِّرُونا بالعهودِ والمواثيقِ وبما عقَّدتُم من الأيمانِ التي كُنتم أنتم أولَ كافرٍ بها..

تسوقونَ أعذارًا وتذرفون من مآقيكُم أنهارًا، تعضُّون أنامِلَ الندمِ مُعلنينَ التوبةَ النصوحَ راجِينَ منا أن نُوقِّعَ لكم على صكوكِ الغُفران..

مِنَّا من يسقُطْنَ أمامَ حنينِهِنَ إليكُم، يضعن أيديَهُنَّ بإرادتِهِنَّ في جُحورِ الكاذبينَ المخادعينَ للمرةِ الثانية، لا يعلمْن أنكم ستُحطِّمُون قلوبَهُنَّ مِرارًا وتكرارًا ثم تعودونُ فتتركُونهُنَّ كذراتِ الرمادِ على أرصِفةِ الحياة، ومنَّا من يَترُكن الأمرَ لِرَبِّ الأرباب كي يجبُرَ كسرَهُنَّ ويقتصَّ لهُنَّ منكم..

باسمِ كُلِّ من تعللتُم لَهُنَّ بالقَدرِ والحَظِّ والنصيب..

باسم كُلِّ الفتياتِ والنِساءِ اللائي عبثْتُم بأرواحِهِنَّ ورقصْتُم ساخرينَ على إيقاعِ دقاتِ قلوبِهِنَّ مُنذُ بدءِ التاريخِ وحتى فناءِ الخليقة..

باسم كُلِّ الأجسادِ التي استبَحتموها ودنَّستُمُوها ورفعْتُم عليها راياتِ انتصارِكُم الحقير..

باسمِ كُلِّ امرأةٍ أنهت حياتَها بيدَيها بعد أن امتَصَصتُم رحيقَ روحِها وتركتُمُوها مُعلقةً على شفيرِ الجحيم..

باسم كُلِّ اللائي واعدتمُوهُنَّ سِرًّا وتركتُمُوهُنَّ جهرًا..

باسمِ المُعذَّبَاتِ البَاكِياتِ في هَجيعِ الليل..

باسمِ التائِهاتِ الحَائِرَاتِ على قارِعَةِ المُستقبل..

باسمِهِنَّ كُلِّهِنَّ..

سُحقًا لكم ..

المنصورة - سبتمبر 2015

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/ahmed.i.moussa

رِسَالةٌ

إلى كلِّ الكادحاتِ في هذا الوطن وفي هذا الزمان،

إلى كلِّ المُهمشاتِ اللائي عِشنَ حياةً لم يبتسِمنَ فيها يومًا.

إلى كلِّ اللواتي وُلِدنَ فعِشنَ لأجلِ غيرهِنَّ ثم رحلن ولم يعُد الزمانُ يذكرهُنَّ بشيءٍ ولم يبقَ من ذِكرِهنَّ إلا دعواتُ أبنائِهنَّ بالرحمة.

شقاؤكُنَّ في هذهِ الحياةِ ينفدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ..

لِأنَّ الشِّعرَ يبقى

ارتحلنا وصارَ الهوى أمسًا

فكيفَ لعينايَ بعدكِ ألا تَدْمَعُ

وكيفَ أهْجَعُ في ليلٍ كاحِلٍ

وأُذنُ غيري لصوتِكِ تسمَعُ

أتُوقُ لخِنجَرِ الرَّدَى يُمزقُني

فلا يترُكُ في جَسدِي عَصَبًا يتوجَّعُ

هو القدَرُ طُوِيَت صحائِفُه

طولُ البُكاءِ لديهِ لا يشفَعُ

أحمد إبراهيم موسى

تمت بحمد الله تعالى

